الطبعة الثانية
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

كلمة الناشر

.. اليأس والأمل عنصران متناقضان، يدفع الأول بصاحبه إلى حتمية الفناء وإن ظل الجسد ملموساً ومرئياً لتكوينه المادي، إلا أن فناء المادة لا يعدو سوى لحظات الزمن المرتبطة بسنة الوجود، وفي الوقت ذاته تكون النفس قد غادرت عالم الحياة فعلاً، لقناعة صاحبها بوصوله لنهايته الحتمية، التي ارتسمت أمامه، منذ أن تسلل اليأس إلى داخله وبدأ بالنخر في روحه الشفافة الحاكمة والمقررة لمسيرة حياته القادمة.

وفي المقابل يكون الأمل على النقيض من ذلك، حيث يدفع بصاحبه للتمعن في سنن الكون الدائمة التكرر، معتمداً على سيرة تاريخ الماضين من الأمم والشعوب، وحقيقة التحول المبني على أساس الانفراج تارة وربط العقدة تارة أخرى، وهي تتسم بالخوف والقلق من الدوران الدائم ضمن حلقة محكمة الإغلاق كما يتصورها، فتخلق في أعماقه قناعة الصبر والاستسلام، لصعوبة الخروج منها، ومن ثم وبعدها مباشرةً يتداعى جزء من الحلقة، وسرعان ما تتبعها باقي أجزائها، فتنبسط وكأنها لم تغلق ذات يوم، فيلمس بذلك حقيقة تقلب الحال وتغيره بين لحظة وأخرى، بشواهده الحاضرة والمتكررة دائماً، فهو يعيش المرض الطويل ثم يأتي بعده الشفاء وتضيق الحياة وتمنعه من تأمين أبسط احتياجاته، ثم تنهمر عليه الأموال من

حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب فتخلق التجربة في نفسه قناعة التغير الدائم، والانفراج بعد الشدة، فيصبح الأمل مشعلاً يتمسك به دائماً، لأن نوره يرسم طريق الصبر والإيمان بأن (مع العسر يسرى) وإن التخلي عنه واللجوء إلى اليأس، سيكون نهاية الطريق الذي ربما للتو قد بدء.

وكذلك هي الحال لسيرة التاريخ وأنبياء الله سلام الله عليهم أجمعين، حيث يأتي النبي ويهدي قومه ويقومهم من الاعوجاج، ويبشرهم بالآتي من بعده ويرحل، فيطول الإنتظار وينقسم المنتظرون، فمنهم لم يزل على عقيدته به، ومنهم من داخله التشكيك في قدومه، أو قدرته على مجابهة الطغاة، بقوتهم العظيمة المسيطرة والمتشعبة، ومنهم من كفر به ويأس من قدومه.

والقسم الأول من أصحاب الأمل، المقتنعين بقدومه الحتمي، لم يركن للنصوص الدينية، لتكون دافعة لهم في انتظار المخلص القادم فقط، دون ايمان برسالة المبشر الذي دعاه للإنتظار، وإعداد نفسه لتلك اللحظة التي ستغير وجه التاريخ القاتم، بل وتجاوز ذلك لتفسير وتحليل النصوص الدينية، ومعرفة حقيقتها وارتباطها بالسنن الكونية المتكررة الحدوث على مر التاريخ، آخذاً بسيرة المخلصين الماضين، وظروف ظهورهم، وما أحدثوه من تغيير على مر العصور، لتكون قناعته بظهورهم حتمية، لا يمكن أن يؤثر فيها تشكيك البعض، وكفر البعض الآخر بظهوره.

كما يحكي التاريخ بأن المشككين في ظهور المخلص على مر التاريخ، يسوقون التهم نفسها تجاه المخلص ويعتبروها مسوغاً لقناعتهم بخرافة المخلص، وأصله الخيالي، البعيد عن الواقع المعاش، بجبروت سلطانه وأسلحته وقبضته الحديدة، على مفاصل المجتمع والدولة والحياة بأكملها.

وهي نتيجة طبيعة لعدم قراءتهم للتاريخ بصورة صحيحة، وتمعنهم في سيرته، التي تحكي قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام، الذي جاء لقوم

تسـلطت النيـران علـى كيانهم، ومفاصـل حياتهـم، حتى خرو إليها سـجداً وجعـل لها أصنامـاً يعبدونها من دون الله، فكيف يمكـن لهذا المخلص أن يقـف بوجه هـذه النيران التي تلتهم الطير في السـماء وهو محلقـاً، حتى إذا حل العقاب بصاحب الرسـالة، وقف شامخاً محطماً لأسطورتهم الصنمية، وجاعـلاً نيرانهـم عاجزةَ عن النيل منه، ليثبت بعدها بأن من يسـتحق العبادة هو أقوى ومسيطر على قوتهم التي يعبدونها.

ولابـد من دخول الشـك فيمن يأتي بعده، فهم يـرون بأن قوة النمرود تغيرت، وأصبحت أكثر وأعظم من سابقاتها، والمخلص إن عمل بمعطيات من سبقه، فسوف يؤول إلى الفشل الحتمي، ولكن إنتظار المؤمنين جاء حقاً وسـقط المشـككين فيما ذهب إليه، فهذا نبي الله يوسف عليه السلام، يأتي لقومه العابدين لمفسري الرؤية لإعتقادهم بعلمهم بالغيب، ومعرفة مايدور في أذهانهم، فكان جواب المصلح أقوى منهم جميعاً، حيث جاءت تفسيراته حقيقية وملموسة على أرض الواقع، ومسقطه لقوة المفسرين الكفرة، ومثبتاً مرة أخرى بأن من يستحق العبادة أقوى من مفسيرهم.

وكذلك هي الحال لنبي الله موسى عليه السلام، الذي أسقط السحرة وجعلهم سـخرية لمجتمعهم وبشـرهم بالمصلح القـادم، وتكرر من جديد ذات المواقف بين مؤمن ومشـكك وكافر بقدومه، فكان سـؤال المشككين في قـدرة المخلص علـى مجابهة المتسـلطين بعلومهم البشـرية، وقدرتهم على علاج أشـد وأخطر الأمراض، بل تعـدى ذلك بادعائهم إحياء الموتى، فيأتي الرد من المخلص ليكون علاجه بمسـحة من يده، بل يتعداه لأكثر من ذلـك، حين يبهر الجميع بإحياء الموتى وإعادتهم إلى الحياة، فتكون دعوته لعبـادة الله عزوجـل مرحباً بهـا لإقناعهم بقدرتـه المطلقة، وسـيطرته على جميع العلوم والعلماء، ويبشر قبل أن يغادر بالمصلح القادم داعياً المؤمنين به إلى إنتظاره واتباعه والإيمان بما يجيء به.

لقد جاء نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لمجتمع عاش الانقسام نفسه، فالمؤمنون ينتظرون تلك اللحظات التي يظهر فيها ويغير وجه التاريخ الأسود، والمشككين يسوقون الشكوك نفسها، والكافرين اليائسين من قدومه، يرفضون مجرد الحديث عنه، ليأتي في هذه الأجواء المشحونة بالقلق والانتظار، ضمن مجتمع، البلاغة لسانهم، لايجاريهم فيها أحد، والقوة والبأس الشديد، علامة فرسانهم، فكيف يمكن لهذا المخلص أن يتحدى هذه القوة والعظمة المتأصلة الجذور.

وكغيره من المخلصين، يرفع المصحف على رؤسهم فيسقطوا صاغرين، وتمتد أيديهم في ظلام الليل وتنزل المعلقات الشهيرة من على الكعبة المشرفة خجلاً من كتاب الله الكريم وبلاغته، التي أغلقت الأفواه عن التباهي بمعلقاتهم أمام القبائل الأخرى، ويشهر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، سيفه ليحطم به فرسانهم الأشداء، وينهي أسطورتهم التي بها سيطرو على العباد والبلاد، ليدور التاريخ من جديد، ويحكي قصة المخلص وقصة منتظريه، وقبل أن يرحل سلام الله عليه، يبشر المؤمنين بالمخلص القادم ويأمرهم بإنتظاره، ليبدأ التاريخ دورته من جديد، وينقسم المجتمع بين مؤمن به ومنتظراً له، وبين مشكك وكافر به.

ونظرية الانتظار لا تخص فئة دون أخرى، أو طائفة بعينها، فالعالم أجمع يؤمن بهذه النظرية، وإن اختلفت في شخصه، ووقت ظهوره، وما يقوم به، وكتب أصحاب الديانات المختلفة، تحكي هذه الحقيقة، حيث يشير اليهود إلى ظهور موسى عليه السلام، ليسودوا الأرض من جديد، كما يبشر النصارى برجوع المسيح وانتشار الخير والسعادة وسيادة العالم، بل إن البوذيين جميعاً يؤمنون بعودة المخلص الذي سحر وعلق على قمة الجبل، ولهذا ينطلقون تجاه قمة الجبل ولو في عمرهم مرة واحدة، لزيارة مخلصهم المسحور، والذي سوف يعود كما يدّعون في آخر الزمان، لينعم

الجميع بالخير والسعادة الأبدية حسب إعتقادهم.

وتبقى نظرية الانتظار قائمة لذى الجميع، حتى مع فقدان الرؤية الواضحة للمخلص، لأن الجميع يرغب ببقاء شعلة الأمل متقده دائماً، ويخشون من اليأس القاتل، يدفعهم الانتظار في الصبر على مآسيهم، والظلم الذي يلحق بهم، أملاً في إنتهاء فترة الانتظار الطويل، وظهور المخلص أخيراً.

ونحن شيعة أهل البيت عليهم السلام نرى بأن زمان المخلص قد حان، وعلاماته قد بدأت تتلو بعضها بعضاً، يدفعنا الاعتقاد بذلك، النصوص الدينية المتواتره والموثقة، وحركة التاريخ الثابته، فمن يحدد المسافة الزمنية بين المخلص والأخرى من الانبياء، يرى بأنها متساوية، وأن هذه المدة الزمنية بعد وفاة رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحتى يومنا هذا، قد أوشكت على التحقق أيضاً، فنحن حسب ذلك نعيش في زمنه القريب التحقق، وخروجه الحتمي الحدوث، إلا أننا لا نوقت ذلك إمتثالاً للنصوص الدينية التي تشير لكذب المؤقته، ولكن لا يعني هذا مطلقاً الخشية من تتبع ظهور علامات المخلص والتبشير بها.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم، لمؤلفه الشهيد السيد حسن الشيرازي قدس سره يناقش ما ذهب اليه المشككين في أصل وجود وظهور الإمام الحجة ابن الحسن عجل الله فرجه الشريف، ويرد عليهم بالنصوص الدينية والشواهد التاريخيه، لينقلهم بذلك من الشك إلى اليقين، قبل أن يأتي يوم الحسرة الذي لاتنفع فيه ندامة النادمين وإعتذار المعتذرين.

هيئة الأنوار الأربعة عشر عليهم السلام الثقافية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة على خاتم أنبيائه والسلام على خاتم خلفائه، وعلى عباد الله الصالحين.

الناس –عادة– يؤمنون بالمألوف بلا محاكمة، لا لأنهم استوعبوه، وإنما لمجرد أنهم وجدوه واقعاً إلى جانبهم، أو لمجرد أنهم وجدوا المجتمع يردده من حولهم.

فالجميع يعترفون بالشمس، لأنهم وجدوها منذ فتحوا أعينهم للنور، ولو لم تكن الشمس في مرمى أنظارهم ووصفت لهم بحجمها الضخم وحركتها الدقيقة السريعة ولهيبها القوي العالي دون أن يأكل من جرمها شيئاً مدى مليارات السنين، لما اعترفوا بها.. ولكنهم حيث وجدوها، اعترفوا بها، وحاولوا أن يفلسفوا غوامضها –في كل جيل حسب الأفكار الحاكمة عليه– ليجعلوها مطواعة لمرتكزاتهم.

ومن هذا النوع اعترافهم بالأرض والنجوم والأجواء وسائر الظواهر الكونية.

وعملية تكوّن الإنسان، وتسلسله معترف بها من قبل جميع الناس، لأنهم تكوّنوا بها ويجدون الآخرين يتكوّنون بها، أما لو كان الإنسان بدواً من الأرض، وكان يقال له: أن نوعاً من الحيوان يتكوّن بتلاقح الدورة المنويّة من

الذكر بالبويضة من الأنثى، وكانت توصف له عملية الإنجاب حتى الولادة لكان يعتبرها خبطاً في الخيال، كما يصعب عليه الاعتراف بأن عيسى عليه السلام خلق من غير أب... لا لشيء إلا لمجرد أنه لم يألف إلا طريقة واحدة في خلقة الإنسان.

ومن هذا النوع اعترافهم بطريقة خلقة المبيضات، وطرائق خلقة الزواحف والهوام والبراغش وسائر الحيوانات والنباتات الترابية والمائية.

فاعترافهم بالظواهر الكونية وطرائق الخلقة في مسلسلات المخلوقات ليس ناتجاً من استيعابها وتصديقها، وإنما هو وليد ضغط الأمر الواقع على الذهنية العامة للتسليم له.

والناس جميعاً - قبل القرن العشرين كانوا يعترفون بمعطيات (هيئة بطليموس) من تراكب السماوات السبع والعرش والكرسي وتراكب الأرضين السبع كطبقات البصل - حسب تعبيراتهم - ومن كون الأرض مركز الكون، ومن حركة جميع السماوات والكواكب والنجوم... إلى آخر معطيات فلسفة أرسطو وطب جالينوس وسائر العلوم التي كانت سائدة في تلك الأجيال. وما كان يتردد أحد في شيء منها إلا ويتهم بالخيانة العظمى - متمثلة في الكفر والزندقة والإلحاد - ثم يعدم قتلاً بالسيف أو جلداً بالسوط أو حرقاً بالنار.

ومن هذا النوع كان اعترافهم بالروحانيات والعلوم الغريبة.

وهم - جميعاً - في هذا القرن يعترفون بجميع معطيات العلوم الحديثة من الفسيولوجيا والبيولوجيا والتكنولوجيا، وانتهاءً بالنسبية العامة والديالكتيك[1]، ولا يتردد أحد في شيء منها إلا ويتهم بالخيانة العظمى - متمثلة في السخافة

---

(١) هو الجدل أو المحاورة: تبادل الحجج والجدال بين طرفين دفاعا عن وجهة نظر معينة: يعتبر الديالكتيك الأساس الذي تبنى عليه الشيوعية بمعنى الجدل الذي يوصل إلى النظريات والقواعد التي تحكم الناس وتسير حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

والجمود والرجعية - ثم يعدم طرداً عن المجالات الحيوية.

ومن هذا النوع إنكارهم للروحانيات والعلوم الغريبة.

لا لأن أولئك اعترفوا بمعطيات علومهم عن استيعاب وتصديق، ولا لأن هؤلاء يعترفون بمعطيات علومهم عن استيعاب وتصديق... وإنما لأن كل واحد من أولئك عندما تفتق فيه الوعي وجد المجتمع من حوله يردد أشياءً فرددها معه، كما يكرر عاداته وتقاليده معه، شأن الطفل الذي يدخل مدرسة، فيردد مع زملائه أناشيدهم ويرفع صوته أو يخفضه معهم، ربما دون أن يفهم حرفاً منها.

ولذلك حارب الناس جميع الأنبياء والمصلحين والمجددين وأوائل المكتشفين، لا لشيء إلا لأنهم طرحوا أفكاراً لم يكن يرددها المجتمع، فمن استطاع منهم أن ينجو من الإعدام، ويواصل الكفاح حتى يقنع المجتمع بأفكاره أصبح عظيماً تنحني أمامه رؤوس من بادروا إلى حربه بلا هوادة... لا لأن المجتمع لم يكن يرددها ثم استطاع أن يلقنها للمجتمع.

وبهذه الببغاوية نعاهم القرآن معزياً رسول الله صلى الله عليه وآله، قائلاً: ﴿**ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ**﴾[(1)] وأعذرهم الرسول متجاوباً مع القرآن، قائلاً: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[(2)].

الحضارة والتكتلات:

والناس - في القرن العشرين - تمزقوا بفعل عاملين:

١- عامل الحضارة المادية، التي تصاعدت بقوة لتصنيع أكثر مظاهر الحياة حتى بهر وهجها الألباب، فافتتن بها قطاع كبير من الناس، ظانين أنها

---

(١) سورة النجم: ٣٠.

(٢) الخرائج والجرائح، ج١، ص١٦٤؛ مناقب ابن شهرآشوب، ج١، ص١٦٦.

القمّة النهائية للحياة، فجرفتهم إلى الإلحاد بكل ما وراء المادة.

٢- عامل التكتلات الدينية التي تصاعدت بقوة - في تنظيمات رجال الدين وفي تجمعات سياسية - حتى كادت تغطي ثلثي المجتمع، فتجاوب معها قطاع كبير من البشر، قائلين بأن الحضارة المادية لا تعبر إلا عن وجه واحد من وجهي الحياة.

هكذا تمزق الناس بفعل هذين العاملين، فمن كان قريباً من قواعد الحضارة المادية تمسك بمعطياتها واعتبر الدين مرحلة تجاوزها الإنسان، ومن كان قريباً من قواعد التكتلات الدينية تمسك بمعطياتها، واعتبر المادية وسيلة لتجاوز الحياة. أما الأكثرية الساحقة من الناس، فأخذوا بمعطيات الحضارة المادية، لتنعيم الحياة وتسهيلها، متسترين بغطاء رقيق من الإيمان بمجمل الأديان، من الاعتراف بوجود الله، وصحة كتبه وصدق رسله في التبشير بالحياة الآخرة، وأما التفاصيل والفروع فلا يجدون ما يلزمهم بها، وربما لا يجدون من يقنعهم، وقد لا يجدون وازعاً داخلياً يدفعهم إلى الاهتمام بها، وإهمال مباهج الحياة ومشاكلها، فيفضلون الاكتفاء من الدين بتزويد ما يردده المجتمع، وأكثر المجتمعات لا يردد من الدين إلا معطياته المتجاوبة مع المفاهيم المألوفة في الذهنيّة العامة.

وإذا عرفنا أن الذهنية العامة تؤمن بالمألوف بلا محاكمة، وترفض غير المألوف بلا مناقشة، عرفنا لماذا يكون إيمان الناس - غالباً - غطاءً رقيقاً يتسترون به.

من هنا نعرف السبب تهرب الناس - عادة - من الخوض في الحوار حول القضايا الفكرية من الأديان، وفي اتهامها بأنها قضايا ميتافيزيقيّة، أو بأنها قضايا إيمانيّة مجردة لا جدوى منها، وفي محاولة إنكار مردودها، مهما كان مردودها في حياتهم الفردية والاجتماعية.

ومن هذه القضايا:

١- قضية الروح وتطوراتها.
٢- قضية الروحانيات غير المحسوسة كالملائكة والجن والشيطان.
٣- قضية المعجزات وكيفية صدورها.
٤- قضية حكومة الإنسان في سائر المخلوقات.
٥- قضية المصلح المنتظر، التي تعبر عن معادلة الخير والشر.

وهذه قضايا طرحتها الأديان، ولها نتائجها الإيجابية الكبيرة.

قضية المصلح المنتظر عليه السلام:

ولسنا في هذه المحاولة، إلا أمام القضية الأخيرة، وهي قضية المصلح المنتظر عليه السلام، التي تعبر عن إحدى المعادلات الثابتة، لأنها تتعلق بإحدى الغرائز المتأصلة في البر.

فالبشر - بمقتضى تركيبته الخاصة - لا يستقيم على طريقة، بغض النظر عن هوية الطريقة، فلا يبقى على الحق، ولا يدوم على الباطل، ولا يواصل الخير، ولا يستمر على الشر، ويكره الديمومة على شيء، مهما كانت حقيقة ذلك الشيء، وإنما يفضل التأرجح بين الأضداد.

ولعل غريزة التأرجح بين الأضداد - أو غريزة التطور - وكّلت بالإنسان لتقليبه في المعادلات المختلفة، حتى تكشف كل مخابئه. وتنمي كل ما في أعماقه من نوايا وركائز، فتحقق بذلك هدفاً من أهداف الحياة. وهو تجربة الإنسان ﴿**وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾[1].

فاستجابة لهذه الغريزة نجد الإنسان دائم الاندفاع بين أقطاب الإغراء

(١) سورة الجن: ١٥ - ١٦.

الكثيـرة المتنوعة، فهو يحب الشـيء ويتدفق نحوه بلهفة حتى إذا تشـبع منه أعرض عنه واتجه نحو ضده بشدة.

- مثلاً: إنه يحب السفر، فيواصله حتى يجوب الأقطار التي كان يفكر فيها، ثم يخلد إلى مدينة فلا يخرج منها مدى سـنوات، ثم يبدأ من جديد رحلات واسعة.
- مثـلاً: قـد ترى إنسـاناً محافظاً لا تذكر له هفـوات، ثم تجده ينفلت بعشوائية، وبعد حين يعاود سيرته الأولى.
- مثلاً: قد يظهر جيل محارب يتتبع الخلافات البسيطة، فيتمسك بها لإشـعال الفتن والحروب، يعقبه جيل مسـالم يتنـازل عن أغلى ما لديه هروباً من المواجهة المسلحة.
- مثـلاً: قـد يقبـل النـاس علـى الأدب أو المسـرح أو الرسـم، حتى يقدّمونه على الخبز والماء، ثم يعرضون عنه حتى يفلس تجّاره.

وهكـذا الدين، قد يظهر نبيّ أو إمام يحـرك فطرة الناس في اتجاه الدين فيتهافتـون علـى جوامعـه ومجامعـه باندفـاع مخيـف، ثـم تتوتر الفطـرة فيهم فيتجاهلون كل شـيء منه بحيث يتحير دعاته. ويتساقطون تحت تيار الإلحاد، ولا يأخـذ التيـار مداه، حتـى يبدأ بالانحسـار، ويتوب الناس إلى رشـدهم في اتجـاه الدين من جديـد، وكأنّه يطرح عليهم لأول مرة، ولم يطرح عليهم لأول مرة، وإنما هي دورة البشر الذي لا يطيق السير على خط واحد.

ولهـذا كلما ظهر نبي أو إمام، واسـتطاع أن يعلـي كلمة الدين –عرف أن ثورته تسـتهلك بعده، وأن خلفائه[1] يعانون الثورة المعاكسـة– فيبشرهم

(١) كما أخبر بذلك رسول ﷺ حيث قال لعلي: «يأبا الحسن ان الأمة ستغدر بك بعدي وتنقض فيك عهدي وأنك مني بمنزلة هارون من موسى، وان الأمة بعدي بمنزلة هارون ومن اتبعه والسامري ومن اتبعه» . بحار الأنوار: ج٢٨، ص١٩١؛ الاحتجاج، ج١، ص٩٨.

بأن الردة لن تكون القاضية، وأن المطاف الأخير سيكون لدينه[1]، وأن الله سيظهر من يجدده، ويقود الناس إلى الصراط المستقيم.

فما من نبي إلا وبشر بمصلح عالي الصوت، شديد الوطء، يحرك التيار، وأمر الناس بالصبر عبر الخريف، وانتظار ذلك المصلح، والالتفات حوله إذا أدركوه.

لقد بشر نوح بإبراهيم، وبشر إبراهيم بموسى، وبشر موسى بعيسى، وبشر عيسى بمحمد، وبشر محمد بظهور المهدي ونزول المسيح، عليهم الصلاة والسلام.

فما ظهر دين إلا وطرح فكرة المصلح المنتظر، والديانات الحية اليوم كلها تهيئ لمصلح منتظر وإن اختلفت الأسماء، فاليهودية تبشر[2] بالمسيح والمسيحية تبشر بأحمد[3]، والإسلام يبشر بالمهدي[4].

معطيات الفكرة:

وإذا أغمضنا النظر عن الأسماء نجد أن فكرة المصلح المنتظر تعني:

١- واقعية الأديان في استيعاب المستقبل، وفي استيعاب دورة البشر في الاتجاه نحو الدين والانحراف عنه، وفي الأخبار عن هذه الدورة.

٢- تطمين المبشرين بأن لهم المطاف الأخير، حتى لا ييأسوا مهما

(١) كما جاءت البشارة بالنسبة إلى دين الإسلام في سورة الصف الآية ٩: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾. وقال المجلسي: «أي ليظهر دين الإسلام بالحجج والبراهين على جميع الأديان وقد مر في الأخبار الكثيرة أنه يكون تمام هذا الوعد عند قيام القائم عليه السلام» بحار الأنوار، ج١٦، ص٣٠٨، وج٢٨، ص٢٤٤.

(٢) أُنظر كتاب محضر الشهود في رد اليهود، الباب الرابع، ١٨١.

(٣) كما أشير بذلك في القرآن الكريم في سورة الصف، آية ٦.

(٤) أنظر كتاب سليم بن قيس، ص ٤٧٨؛ الحمويني في فرائد السمطين، ج٢، ص٣١٠، ح٥٦١؛ كنز العمال، ج١٤، الحديث٣٨٦٥.

ارتفعت درجة معاناتهم، ومهما استبدت الثورة المعاكسة بالأجواء.

٣- تيئيس العاملين ضد الدين وضد المبشرين به، من نجاحهم في العمل ضد الدين، فإذا استطاعوا أن يهرجوا يوماً أو أياماً، فلا يعني ذلك أنهم أضحوا سادة الموقف، فالدين هو الخط الصحي العام، والانفلات فوضى لن تدوم.

٤- تهيئة المؤمنين بالدين لاستقبال المصلح المنتظر، حتى يظلوا متأهبين له، وتأهبهم له يساوي إبقائهم موفوري القوى، وهذا يخدمهم قبل أن يخدم المصلح المنتظر، لأنهم لا يؤخذون على حين غرة من قبل أعدائهم، ولا يجمدهم الخمول، فهم - دائماً - تحت الإنذار، يراقبون الأجواء بلهفة وحذر.

٥- تمهيد الأرضية الصالحة للمصلح المنتظر، حتى إذا انتفض لا يجد نفسه غريباً يبني ابتداءً من الحجر الأساس، وإنما يجد نفسه يرفع البناء على أساس من سبقه. وهكذا كان، فلم يبعث نبي إلا وجد من ينتظره، ويسعى إليه من أقاصي الدنيا بهيام عميق. وهذه الظاهرة مما أوفدت أخوة الأنبياء (عليهم صلوات الله تعالى)، فكل واحد منهم كان مبشراً به من قبل السابقين عليه، فيصدق السابقين عليه ويبشر اللاحقين به، ويقوم بدور الحلقة الواحدة في المسلسل البعيد الطرفين. وليس الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف إلا حلقة في هذا المسلسل من المبشرين بهم والمبشرين بغيرهم.

ظاهرتان: اليأس والتشكيك:

وهنالك ظاهرتان تكتفنان المؤمنين الذين يعيشون في الفترة بين الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

الأولى: ظاهرة اليأس كلما طالت الفترة، ولم يظهر المصلح الموعود به، وربما كانت الفترة تسع عدة قرون وتستهلك بضعة أجيال، فكان الناس

يشككون في الأحاديث المبشّرة به، وخاصة في الفترات السابقة التي لم يكونوا يمتلكون وسيلة لنقل الحديث سوى ذاكرة الرواة.

الثانية: ظاهرة التشكيك في مقدرة المصلح الموعود به على تغيير الأجواء، لأنهم كانوا يرون التقدم المادي للبشر، وكانوا يظنون أن النبي اللاحق سوف يستخدم الوسائل التي اتبعها النبي السابق، فكانوا يجدون تلك الوسائل غير مجدية، فيعتريهم الشك في قدرته على إنقاذ الناس من براثن السلطان الغاشمة المزودة بالأسلحة الجديدة.

دور إبراهيم الخليل عليه السلام:

فمثلاً: في عهد إبراهيم الخليل عليه السلام لم يكن للملوك جيش نظامي، ففي أيام المسلم حتى خدم الملك مزودون بالسلاح ويؤدّون دور الحرس، والشرطة، وفي أيام الحرب يدعى الناس إلى النفير، فينفرون بأسلحتهم، ولذلك جند إبراهيم الخليل عليه السلام جيشاً من المؤمنين به، وقاتل في الشام، وانتشر.

دور موسى عليه السلام:

فلما ظهر الفراعنة في مصر تطور الأمر من ناحيتين: الأولى: أن الفراعنة حاولوا تأسيس إمبراطورية واسعة - في ظل دعوى الربوبية - فأسسوا جيشاً نظامياً، ووجهوا فصائله إلى الأقطار المجاورة، من أجل إخضاعها لحكم الفراعنة. الثانية: ظهر في أيامهم السحر، وتقدم بسرعة مذهلة، فكان الملك الفرعوني يحكم بسلطتين: سلطة جيش نظامي جرّار، وسلطة سحرة أشداء. والمؤمنون الذين كانوا ينتظرون ظهور موسى بن عمران، كانوا يظنون أن موسى بن عمران - حينما يظهر - يستخدم الأساليب والوسائل التي استخدمها إبراهيم الخليل عليه السلام فكانوا يشكّون في انتصاره على الفراعنة، وما كانوا يعلمون أن موسى بن عمران عليه السلام يظهر بتسع آيات

بينات يتضاءل أمامها السحر والسحرة، وبقوة عصاه التي تلقف ما يأفكون، وبقوة البحر الذي يبتلع فرعون وجنوده. ما كانوا يعلمون ذلك، فكان من الطبيعي أن يشكّوا في انتصار موسى بن عمران على الفراعنة. فلما جاء موسى بن عمران بتلك الوسائل عرف الناس أن أنبياء الله قد يأتون بمثلها. وقضى موسى بن عمران على أسطورة السحر الذي لا يقهر، والجيش الذي لا ينهزم، والملك الذي لا تطاله قوة حتى يقول: أنا ربكم الأعلى.

دور عيسى عليه السلام:

ومثلاً: تطور الأمر بعد موسى بن عمران، فظهر في الناس فراعنة من نوع جديد، لا يقهرون أجسام الناس بالسحر والجنود، وإنما يقهرون عقول الناس بالعلم، وليس بأي علم، وإنما بعلم إنساني يحتاج إليه جميع الناس، ظهروا بعلم الطب، وبالإخبار عن الغيبيات، وتقدموا فيهما، حتى كان أحدهم يحيي الميت إذا عرض عليه قبل أن يبرد جسمه، ويفحص المريض بمجرد إلقاء نظرة على وجهه، ويخبر عما أكله المريض أو فعله. فكان المؤمنون الذين ينتظرون عيسى ابن مريم عليه السلام يظنون أنه سيظهر بمثل وسائل إبراهيم الخليل، أو بمثل وسائل موسى بن عمران، فكان من الطبيعي أن يشكّوا في مقدرة عيسى ابن مريم على دحر قادة الإلحاد، المتسلحين بالعلم النافع، وما علموا أن الله سينصر رسله في كل زمان بالوسائل المناسبة، فظهر عيسى ابن مريم عليه السلام بالعلم المتفوق، فقال: أنا أبرئ الأكمه والأبرص وسائر المصابين بالأمراض المستعصية، لا بالدواء، وإنما بمجرد مسحة يد، وأحيي، لا الميت الجديد الذي لم يبرد جسمه بعد فقط، وإنما أحيي كل الأموات حتى الميت الرميم ﴿**أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾(١)، وهنا ما لا يدّعيه طبيب وإني أخبركم

(١) سورة آل عمران: ٤٩.

لا بما أكله المريض أو فعله فأصيب فحسب، وإنما أخبركم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، فهزم فراعنة العلم بسلاحهم.

دور رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم:

ومثلاً: تغيّر الأمر بعد عيسى ابن مريم، وخاصة في جزيرة العرب، حيث البشائر تمتد نحوها قاعدة للنبي الذي يظهر بالسيف، فبرزت في الجزيرة ظاهرتان:

الأولى: ظاهرة البلاغة الفائقة، التي تجعل من الكلمات اليومية البخسة، والعواطف الرخيصة، عالماً حياً زاخراً بالحكمة والصور والألوان... إننا اليوم لا نستطيع أن نستوعب عظمة المعلقات السبع، ونحن مبهورون بوهج القرآن وما انبثق عنه من كلام النبي وآله عليهم السلام، ولكن تجربة عابرة للمقارنة بين المعلقات السبع وبين أي كلام سبقه تكفي للدلالة على ما كان لها من بريق مخيف.

الثانية: ظاهرة الفوضى المسلحة، التي تجعل أي إنسان مهما تعالى، مهدداً بالتصفية الجسدية..

وهذه الظاهرة تجعل كل من يفكر في الحق والعدل والإنصاف وسائر المثل والقيم الرفيعة، يعتبر هروبه من مثل هذه الجزيرة الساخنة أكبر انتصاراته في الحياة لا خوفاً على حياته أن تهدر بلا مبرر فقط، وإنما خوفاً أن يورّط في معركة تافهة تجرده من كل معنوياته[1] وقيمه بلا بدل.

فكيف بنبي يكون رمز السماء على الأرض، ويريد أن يقود النصف المتقدم من البشر في مسيرة الفضيلة والكمال إلى الإنسانية العليا؟ والمؤمنون

---

(١) وقد أشارت إلى ذلك المجتمع سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها المشهورة، عوالم العلوم: ج٢، ص٦٦٣-٦٦٤.

الذين يقتاتون انتظاره، ويعرفون الوسائل التي استخدمها كل من إبراهيم الخليل وموسى بن عمران وعيسى ابن مريم عليهم السلام، كانوا يظنون أن النبي الجديد يظهر بما يشابه تلك الوسائل، فكانوا يرون أنها متفرقة أو مجتمعة لا تجدي شيئاً في مجتمع البلاغة والفوضى، فيشكّون في انتصار النبي الجديد.

فأظهر الله نبيه الكريم وبقرآن يعلو ولا يعلى عليه، فلم تنزل سورة (فاتحة الكتاب) حتى عمد أساطين البلاغة إلى نزع المعلقات السبع من جدران الكعبة ليلاً، حتى لا يعابوا بها، وبسيف، لم يشارك في الاعتداء، وإنما قضى على الاعتداء، فلم يضرب به أحداً إلا دخل النار وعابه الناس. فاستأصل أوبئة الفوضى وأبرأ الجزيرة من جنونها، ولم يبلغ عدد ضحاياه سبعمائة شخص، في جميع حروبه وغزواته وسراياه، فاستطاع ذلك السيف ذاته وبتلك الدماء ذاتها، أن يكتب على لوحة الجزيرة لافتة تشخص أبصار كل من حمل السلاح إلى الأبد: ﴿**أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[1]، ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾[2].

وكان سيفه تجربة لإلغاء السيف وكان انتصاره الذي فاق كل الاحتمالات والتوقعات وبزّ كل التنبؤات، فإذا بشعب الجزيرة الفوضوي، يمتد برسالته فيكل اتجاه، لينشر الإيمان والحضارة والخير، وليؤسس دولة ذات سيادة عالمية، لم تظهر بمواصفاتها دولة لا من قبلها ولا من بعدها حتى الآن.

وهكذا انتصر داوود بشكل وانتصر سليمان بشكل، وانتصر يوسف بشكل. وهكذا غيرهم.. وغيرهم من سائر رسل الله وأنبيائه الكرام.

---

(١) سورة المائدة: ٣٢.

(٢) سورة النساء: ٩٣.

هـذا فيمن نعـرف من رسـل الله وأوضـاع مجتمعاتهم والوسـائل التي انتصـروا بهـا، وهكذا فيمـن لم نعرف من رسـول اللـه وأوضـاع مجتمعاتهم والوسائل التي انتصروا بها، ولكن مجمل ما نعرفه عنهم أنهم انتصروا جميعاً، وانتصارهـم يكفي للدلالة على أنهم كانوا أقوى من مجمعاتهم، وأنهم جميعاً فاجئوا مجتمعاتهم بأسـاليب ووسـائل لم تكن في الحسبان، وسواء أسميناها معجزات أو أسميناها كفاءات[1]، فجوهر القضية واحد، وهو أنهم تفوقوا على كل القـدرات الحاكمة في عهودهم. فلتتقدم المجتمعات ولتتطور، ولتحشـد ما استطاعت تحشيده من طاقات وأساليب، فإن الله سيزود رسله وأوصيائهم بما هو أقوى وأعلى، وسـيجعل **﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾** [2]، **﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**[3].

هاتان الظاهرتان موجودتان، بخصوص الإمام المهدي المنتظر:

أ- ظاهرة اليأس:

الأولى: ظاهرة اليأس منه، فقد طالت فترة غيابه، أكثر مما كان يتوقع، فقد تفانت الأجيال تلو الأجيال وهي تترقب ظهوره سنة بعد سنة، وأسبوعاً بعـد أسـبوع، وربمـا يوماً بعـد يوم، وكـم كان الذيـن وجدوا بعـض علائم ظهوره، فوقفوا على أهبة الاستعداد لتلبية ندائه، وما كانوا يرقدون في الليل إلا ويتوسـدون أسـلحتهم، حتى إذا أهاب بهم المنـادي، لا يكون لديهم ما يعوقهم عن الإسراع إليه؟.. وكم كان الذين قرأوا في الأحاديث: أن توقيت

---

(١) إنما ذكرنا لفظ الكفاءات أيضاً تمشياً مع من يفرون من الألفاظ لنستوقفهم كي يتذكروا ويتدبروا وإلا فالمعجزة كفاءة خاصة جعلها الله تعالى في أفراد معينين من البشر (منه أعلى الله مقامه).

(٢) سورة التوبة: ٤٠.

(٣) سورة المجادلة: ٢١.

ظهـوره يصـادف يوم الجمعـة[1]، فألزموا أنفسـهم بالخروج إلـى الصحراء صبيحة أيام الجمعة بكامل أسـلحتهم، حتى إذا خـرج يلتقيهم وكأنهم على موعد؟... وكم كان الذين رأوا في المنام أشـياء أو قرأوا أحاديث، فطبقوها علـى وقت معين، فبادروا إلى تصفية حسـاباتهم قبـل ذلك الوقت، حتى إذا خرج وقتلوا بين يديه لا يكون عليهم شـيء مـن حقوق الناس أو من حقوق اللـه ؟... وكـم كان الذيـن يؤجّلـون تصفية حسـابات خصومهـم إلى حين ظهوره، حتى يكون هو الذي يثأر لهم؟...

ثـم يأتي الرجـل في هذا اليوم، فيقرأ أو يسـمع أن آبائه ماتـوا انتظاراً، ومـرت مئات السـنين ومئات السـنين ولـم يظهر الإمـام المنتظـر، فيمتلكه اليأس من ظهوره، أو يحدّث نفسـه قائلاً: حتى لون كان الإمام المنتظر باقياً ويظهر في يوم من الأيام، فما الذي يشير إلى أنني سأراه، ولربما لا يظهر إلا بعـد مئات السـنين أو آلاف السـنين، كما لم يظهر حتى اليـوم، وقد مر على غيابه أحد عشر قرناً ومئات الملايين من الشيعة في كل جيل ومن كل مكان يعدّون اللحظات في انتظاره.

ثم يسـتنتج: إذن عليّ أن أجري كل حساباتي على أنه لا يظهر مطلقاً، أو أنه لا يظهر في عهدي على الأقل. وقد عبّر الإمام عن هذا اليأس السـافر بقوله: «ستطول غيبته حتى يرجع عنه أكثر القائلين به»[2].

---

(١) فلهذا نقرأ في زيارته يوم الجمعة: « ... صلوات الله عليك وعلى آل بيتك، هذا يوم الجمعة وهو يومك المتوقع فيه ظهورك والفرج فيه للمؤمنين على يديك وقتل الكافرين بسيفك ... « مفاتيح الجنان.

(٢) ففي الحديث عن علي بن جعفر عن الإمام الكاظم عليه السلام: «لابد لصاحب هذا الأمر من غيبة، حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به» بحار الأنوار، ج٥٢، ص١١٣، ح٢٦.

ب- ظاهرة التشكيك:

الثانيـة: ظاهرة التشكيك في مقـدرة الإمام المهـدي المنتظر عليه السلام على السيطرة العالميـة، بعـد ظهـور الأسـلحة الحديثـة، وانتشـار الأسـلحة الذرية، والقواعـد الجويـة، والصواريـخ الالكترونيـة ذات الآمـاد البعيـدة، والقنابـل الأتوماتيكية المزوّدة بالعقول الإلكترونية... ولا يعلم إلا الله ما ستنتجه المعامل العسـكرية من وسـائل التدمير المخيفة إلى وقت ظهوره عليه السلام... فكيف ينتصر على كل هذه الأسلحة المبيدة والملايين المتزايدة من الجنود التي تملأ القواعد العسـكرية فـي أنحـاء العالـم، وخاصـة إذا كان يظهر بالسـيف -كمـا في بعض الأحاديث المبشرة-[1] به مع أنه لم يعد للسيف مكان إلا في المتاحف الأثرية؟

ج - ظواهر جديدة أُخر:

وبالنسـبة إلـى الإمـام المهـدي المنتظـر عليه السلام تضـاف إلـى هاتيـن الظاهرتيـن اللتين كانتا تطبعـان كل المؤمنين في الفترة بين الرسـل، تضاف إليهما ظواهر جديدة.

الثالثـة: ظاهرة التشـكيك فـي حياته حتـى الآن، فقد مـرّ على ميلاده الميمـون صلـوات اللـه عليه حتـى كتابة هذه الأسـطر ألف ومائـة وإحدى وأربعون سـنة هجرية. ونحن في دورة من عمر البشـرية لا تأذن بأن يبلغ أي فرد مائتين من السنين مهما كانت ظروفه الصحية والمناخية ملائمة.

الرابعة: ظاهرة التشـكيك في فائدة الإمام الغائب، فشـأن الإمام شأن الرسول في أن الله يخوله قيادة المجتمع، فإن لم يستطع قيادته عملياً لأسباب يتحمل مسـؤوليتها المجتمع ذاته، فلا أقل من قيادته الفكرية للمجتمع، فإن

(١) أصول الكافي، ج١، ص٤٠٧، الرقم١، وتفسير البرهان، ج٢، ص٢٧، الرقم٢، وإكمال الدين، ج٣٢٢، ح٣، وبحار الأنوار، ج٥١، ص٢١٧، ح٤.

لم يستطع هذه أيضاً، فبماذا يعود على المجتمع؟... وماذا يهدف الله تعالى من إبقائه حياً، طالما لا يأذن له بالاتصال بأحد من خلقه؟...

الخامسة: ظاهرة التشكيك في إيجابية فكرة الإمام المهدي لسببين:

الأول: تكريس اليأس عن جدوى أي عمل إيجابي قبل ظهوره.

الثاني: تكريس اليأس عن جدوى أيّ عمل إيجابي بعد ظهوره مادام الله عز وجل قدّر أن يملأ الأرض - به - عدلاً وقسطاً.

وهذان القدران يعلنان تعطيل أدوار الآخرين، وبالتالي يوحيان بتجميد كل الطاقات المؤمنة به. لأن أي عمل إيجابي لا يعني غير تحدي القدر الذي يضحك من كل المتحدين. أو مجاراة القدر الذي لا تنشطه المجاراة.

السادسة: ظاهرة التساؤل عن موعد ظهوره. وهل يظهر في وقت قريب؟ أو أنه يظهر إلا بعد فترة طويلة من الآن؟ ثم ما هي علائم ظهوره؟ وهل العلائم الواردة في الأحاديث المبشرة به صحيحة أم لا؟ وإذا كانت صحيحة فلماذا لم يظهر مع أن تلك العلائم قد ظهرت - حسب رأي العلامة المجلسي (رحمه الله) قبل ثلاثمائة عام؟...

السابعة: ظاهرة التساؤل عن الأدلة التي تثبت أصل فكرة الإمام المهدي المنتظر من الكتاب والسنة؟..

الثامنة: ظاهرة التساؤل عن أن فكرة الأمام المهدي المنتظر عليه السلام هل هي من عناصر الفكر الشيعي فقط؟ أو أن المسلمين - جميعاً - يعترفون بها؟...

الثامنة: ظاهرة تسائل تقول: حتى لو ثبتت فكرة الإمام المنتظر شيعياً أو عند كل طوائف المسلمين، فهل يسوقنا التمرد عليها أو إهمالها، إلى منعطفات دينية أو اجتماعية أو فردية؟...

مناقشة الظواهر

الأقسام الأربعة لظاهرة اليأس

الظاهرة الأولى: وهي ظاهرة اليأس من وجود الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، أو من ظهوره مطلقاً، أو من ظهوره في وقت قريب، ولتحقيق مدى صحية هذا اليأس نقسم اليأس إلى أربعة أقسام:

١ - اليأس من المستحيل، كاليأس من أن يصير ٢+٢ = ٣ أو = ٥ ومثل اليأس من اجتماع الضدين والنقيضين - بحدودهما المذكورة في علم المنطق - وهذا اليأس معقول.

٢- اليأس من الذات، مثل يأس الفرد من أن يحمل جبلاً على ذراعيه أو من أن يطير في الهواء بلا وسائل. وهذا اليأس مقبول.

٣- اليأس من الغير، مثل يأس فلاح من أن يزوره الملك في كوخه، وهذا اليأس منطقي في كثير من الحالات، وليس صحيحاً على العموم، فكم من المفاجآت تخترق جدران اليأس؟ وكم بزغت الآمال من ظلام يأس مطبق؟

ولعل اتخاذ الموقف أمام هذا القسم من اليأس - الذي يمكن أن نسميه بـ(اليأس العادي) - من المنعطفات الخطيرة التي تفرز العظماء عن التافهين.

٤ – اليأس من الله، وهو أن يعتقد فرد بأن الله قد أغلق أبوابه، أو أنه لا يجد لأمره مخرجاً، أو لعقدته حلاً، وأمام هذا الظن يلجأ المؤمن إلى الله، ونتيجة لهذا الإيمان لا يدب إليه اليأس، أما غير المؤمن فإذا جرب الأسباب التي يعرفها، ولم تنته إلى النتيجة التي يريدها انكفأ على نفسه في ظلام من اليأس ثقيل.

وهذا اليأس لا يعني الجهل بالله وقدرته غير المتناهية فقط، وإنما يعني الجهل بالحياة وأبعادها البعيدة، وهو الضلال في منطق القرآن: ﴿**وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**﴾[1]؟، ﴿... **وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾[2].

هذا فيما لم يسبق إليه وعد من الله، أما إذا وعدنا الله بشيء، ولم نجد في أفقنا القريب المحدود إشارات تمتد إليه، فيأسنا منه لمجرد ذلك يدل على أن مدانا أضيق من حبل المشنقة.

وبالنسبة إلى الإمام المهدي المنتظر، وعد الله بإظهاره وتمكينه في الأرض، ولن يمنعه من تنفيذ وعده مانع في الأرض ولا في السماء. وقد قرر منذ الأزل توقيت غيابه وظهوره – وفق حكمته البالغة – ورتب لغيابه وظهوره وتمكينه أسباباً كافية، كما قرر حركة النجوم، وتوقيت غيابها وظهورها – بالنسبة إلى إنسان الإنسان، ورتب لتفاعلاتها أسباباً كافية. أما كون توقعاتنا تستعجل ظهوره، وكون تصوراتنا تستبطئ فتره غيابه عليه السلام، فهذه أمور ناتجة من الجهل بالحكمة العليا، ولا تأثير لها على حركته مطلقاً، كما أن توقعاتنا وتصوراتنا – مهما كانت – لا تؤثر على حركة النجوم أبداً.

وإذا كانت توقعاتك وتصوراتك لا تغير حركة قلبك ومعدتك، ولا تقدم

---

(١) سورة الحجر: ٥٦.

(٢) سورة يوسف: ٨٧.

ولا تؤخر ميـلاد ابنك ووفاة زوجتك، فهل تريد لهذه التوقعات والتصورات، أن تستطيل حتى تغيّر إرادة الله في إدارة كونه، وتبدل حكمة الله في نشاط أوليائه؟

إن علينا – في مثل هذه الأمور – أن نعلم: أن الله إذا وعد شيئاً نفذه في الوقت الذي يشاء، وبالأسلوب الذي يشاء، ولا تعاكسه الظروف والأحوال لأنه هو الذي يخلق الظروف والأحوال ويصرفها كما يشاء.

وإذا علمنا ذلك لا يمتلكنا اليأس من ظهور الإمام المهدي المنتظر، ولا نرى أنه تأخر أكثر مما ينبغي، بل نعرف أنه سيظهر في الوقت المحدد لظهوره، ونتوقع أن يصادف ظهوره أي يوم من أيامنا. وأية ساعة من ساعاتنا.

مناقشة التشكيك:

الظاهـرة الثانيـة: وهـي ظاهرة التشـكيك في مقـدرة الإمـام المهدي المنتظر عليه السلام على السـيطرة العالمية بعد ظهور الأسـلحة الحديثة، ويمكن مناقشة هذا التشكيك بما يلي:

إن اللـه وعد بنصرة الإمام المنتظر عليه السلام وتمكينه في الأرض، حسـب تأويل قوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُـمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّـنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾[1] وحسـب تصريح النبي الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم بقولـه: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطول الله ذلك اليوم حتى يظهر رجلاً من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً»[2]. ووعد الله، والله لا يخلف

(١) سورة القصص: ٥-٦.

(٢) أخرجه باختلاف يسير الشيخ المفيد في الإرشاد، ج٢، ص٣٤١-٣٤٢، والطوسي في الغيبة، ص١٨٠، والكراجكي في كنز الفوائد: ص١١٣، وابن البطريق في العمدة: ص٤٣٣، الرقم ٩٠٨، والسيد ابن طاووس في الطرائف: ص١٧٦.

الميعاد، ووعد الله أقوى الضمانات لنجاح الإمام المنتظر في رسالته العالمية، لا بالنسبة إلينا نحن الذين نحاول أن نعرف شيئاً من ذلك التحول الكبير فقط، وإنما حتى بالنسبة إلى الإمام المنتظر نفسه، المكلف بنقل العالم كله من مرحلة الفوضى والمناقضات إلى مرحلة الاستقرار والانسجام.

ويكفي - في هذا المجال - أن نعلم أن الله ينصر أوليائه الكبار، بالمفاجآت الكبيرة التي ترتبك لها قادة الرأي في العالم بحيث لا يطيقون التفكير وإذا فكروا لا يستطيعون التدبير.

هكذا الإمام المهدي المنتظر عليه السلام يفاجئ بما لا قبل للعالم به، أما تفاصيل تلك المفاجئة، فتهمه أكثر مما تهمنا، والذي كلفه بتلك المهمة العالمية الضخمة، وفّر له الوسائل المناسبة لأدائها، كما وفّر لمن سبقه من أوليائه العظام، الوسائل المناسبة، لأداء مهماتهم.

سلاح الإمام المهدي عليه السلام

يبدو من مواصفاته المنقولة إلينا، أنه يأتي بنوع جديد من السلاح، تكون لديه الأسلحة المتقدمة رمزية لا جدوى منها، وأنه يأتي بنوع جديد من التكتيك تصبح التكتيكات الحديثة أمامه تقليدية لا فحوى لها.

ففي الأحاديث المبشرة به إشارات إلى ذلك.

- ورد في وصف سيفه: «أنه يعرف أعداء الله فيقتلهم، ويعرف أنصار الله فيدعهم» ولعل السلاح الذي يميز بين الأفراد، فيقضي على غير المؤمن. ويترك المؤمن، ليس سيفاً، وإنما هو نوع آخر من السلاح غير الموجود حتى اليوم، ولكن ورد التعبير بالسيف، لأنه كان أبرز سلاح يقاتل به في فترة صدور الأحاديث، ولو كان المعصومون عليهم السلام يستخدمون غير الاسماء المعروفة، لكان الرواة يمتنعون من نقلها خشية أن تقابل بالسخرية والاستخفاف.

- وورد في وصف سيوف أنصاره: «ولهم سيوف من حديد، لا كسيوفكم، إذا ضرب به أحدهم جبلاً قطّه» وظاهر أن السلاح الذي إذا ضرب به أحدهم جبلاً قطّه ليس سيفاً، وإنما سلاح آخر.

- وورد في كيفية انتصاره: «أنه إذا ظهر توقفت الأسلحة، فلم تتحرك في وجهه» ولعله إشارة إلى أنه يظهر بسلاح تكون الأسلحة الموجودة في ذلك الوقت رمزية أمامه، ولعله إشارة إلى أنه يستخدم نوعاً من السلاح يعطل كل الأسلحة الموجودة، أو يجمد كل الآليات المتحركة.

- وورد في وسائل انتصاره: «يسير أمامه الرعب مسيرة شهر»(١) وفي نص آخر: «أنه يحكم بالرعب» و«يُنصر بالرعب»(٢)، وهذا النوع من التعبير يشير إلى أن سلاحه أو تكتيكه شيء جديد مخيف ينهار أمامه القادة، فلا يحسنون غير الاستسلام.

- وورد في وسائل الإعلام التي تعلن عن ظهوره: أنه في الليلة التي يظهر في صبيحتها: «يجعل النور عموداً بين الأرض والسماء. فتشرق الأرض بنور ربها كالنهار» ويعلم جميع الناس أن الكون يتمخض عن ظاهرة كبرى... وفي صبيحة تلك الليلة يهتف جبرئيل في الهواء: «ألا قد ظهر المهدي بمكة، فاتبعوه»(٣) فيسمع صوته جميع البشر، ويعلمون أن تلك الظاهرة انطلقت وستأخذ طريقها إلى الانتشار.

أما النصوص التي تقول بأنه يظهر بالسيف فقد يمكن تفسيرها بما يلي:

---

(١) الغيبة للنعماني، ص ٢٣٤، ح٢٢؛ بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٠٨-٣٤٨.

(٢) اكمال الدين، ص٣٢٧؛ بحار الأنوار، ج٥١، ص٢١٧، ح٦.

(٣) في رواية طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «... فيقول جبرائيل في صيحته: ياعباد الله اسمعوا ماأقول: إن هذا مهدي آل محمد خارج من أرض مكة فأجيبوه...» إلزام الناصب، ج٢، ص١٨٠.

- إن السيف رمز السلاح، أو رمز القوة، فيكون معنى هذه الأحاديث: أنه يظهر بالسلاح، أو أنه يظهر بالقوة.

- ورد في بعض هذه الأحاديث أنه يحمل السيف، ومعنى حمله السيف، أنه يختاره شعاراً، واختيار السيف شعاراً يختلف عن استخدام السيف سلاحاً وحيداً في معاركه.

- لعل المقصود من ظهوره بالسيف، إنه إذا أراد إعدام شخص أمر بضرب عنقه، انطلاقاً من التعاليم الإسلامية، التي تأمر بإراحة الضحية وعدم تعذيبه بالوسائل المختلفة للإعدام، فيكون السيف، السلاح الذي يخيف المجرمين داخل دولته، لا أنه سلاحه في معاركه وفتوحاته.

- في بعض تلك الأحاديث تصريح بأن السيف الذي يحمله، هو سيف ذو الفقار، وهو السيف الذي استخدمه جدّه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في معارك الإسلام الحاسمة، وورد أنه نزل من السماء، وأصبح فيما بعد من جملة التراث المقدس الذي توارثه الأئمة الأطهار عليهم السلام.

فربما يحمله الإمام، ليرمز إلى أنه أتى لتجديد الإسلام، ولم يأت بدين جديد.

وربما يحمله ليؤكد انتسابه إلى رسول الله، دحضاً للتهم التي تطاله في نسبه نظراً لقدم عهد أبيه وظهوره في مظهر رجل بسنّ الأربعين، ورداً للتهم التي تقول: بأنه ليس من ذرية رسول الله، نظراً لقتله أعداداً كبيرة من المجرمين زعماً منهم أن ذرية رسول الله يحاولون الابتعاد عن الخوض في الدماء حتى دماء المجرمين.

وربما يحمله تبركاً به، باعتباره السيف الذي فتح الطريق أمام الإسلام.

وربما يحمله كذكرى جده أمير المؤمنين عليه السلام الذي كانت حياته

كلها تضحيات مرة في سبيل الحق.

وربمـا يحمله، فـي جملة ما يحمله من مواريـث الأنبياء، ومنها خاتم سـليمان، وعصا موسـى بن عمران، وتابوت بني إسـرائيل، وأشـياء أخرى، وذو الفقار أبرز تلك الأشياء، فيشتهر بأنه ظهر بالسيف.

فرفعـه السـيف شـعاراً، أو حملـه رمـزاً، لا يعني اسـتخدامه سـلاحاً وحيداً في معاركه، وإنما تشير جملة من الدلائل والقرائن على أنه يستخدم أسلحة أخرى، شديدة الفتك والتدمير، إلى درجة رهيبة، تخلع قلوب القادة العسكريين، فيستسلمون لتجاربها الأولية، ويستقبلونها بالرايات البيض.

والأسلحة المتطورة:

وربما يستخدم الأسلحة المتطورة الموجودة في حين ظهوره، ويحرك الجيـوش المتثائبـة فـي المعسـكرات، ويعتمـد فـي تكتيكه علـى عنصرين المفاجئة والسرعة - كما يظهر من بعض الأحاديث -.

فلا يشـترط في الثائر الذي يخترق المغيب إلى كبد السـماء، أن يكون قد حشـد في مغيبة قوىً أكثر من القوى المتصارعة على الأرض، وإنما يشـترط أن يملك الخطة التي بها يسيطر على قوة ضارية من تلك القوى، وكل الثائرين الذين قفزوا من تحت الأرض إلى دفة الحكم لم تكن وسيلتهم سوى خطة ناجحة.

فـإذا ظهر الإمـام المهدي المنتظر عليه السلام وتوافد إليه حواريـوه الثلاثمائة والثلاثة عشر، والتف حوله من أنصاره الأشداء حتى زادوا على ألف رجل انطلق من مكة يبسـط سـلطانه على الحجاز، فأيّدته المعسـكرات، وسـار بها إلى الشام يحتاج سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، ثم انعطف نحو العراق فانفتح له، تتجمع لديه قوة عسـكرية ضخمة، يستطيع أن يوجه فصائلها نحو الخليج وإيران والهند وأفغانستان شرقاً، وأن يوجه ما تبقى منها إلى أفريقيا غرباً، واستيلائه السريع على

الحجـاز وسـوريا ولبنان والأردن وفلسـطين والعراق خلال أيـام وبدون مقاومة تذكر من جهة، وخططه الجديدة المنتصرة من جهة أخرى ومفاجآته الخاطفة من جهة ثالثة، وانتصاراته المتتابعة التي لا تتعثر بهزيمة من جهة رابعة، ترفع أنصاره فوق السحاب معنوياً ومادياً وتخفض بأعدائه تحت الصفر معنوياً ومادياً وتجعل منه قائداً مظفراً رهيباً تنخلع لإسمه قلوب وتطمئن إليه قلوب.

وطاقاته الروحية:

هـذا إذا اكتفى باسـتخدام طاقاته المادية كقائد، أمـا إذا ضم إليها طاقاته الروحية كإمام، ووجد الناس - بالفعل - عناصر السماء وراءه، فرأوا الملائكة يقاتلون بين يديه ووجدوا الأموات قد نشـروا من قبورهم يحملون أسـلحتهم إلـى شـتى الجبهات للدفـاع عنه، ووجدوا الإمـام يأمر الصحراء أن تنخسـف بأعدائـه، فتبتلع الصحراء جيشـاً كامـلاً برمّته، ويأمر السـحاب أن يدمدم على قوم فيمطرهم بالصواعق حتى لا ينجو منهم أحد، ويأمر أسلحة أعدائه أن تكر عليهم فتعود إليهم الأسلحة التي في أيديهم حتى تبيدهم عن بكرة أبيهم.

فإذا اسـتخدم الإمـام كل صلاحياتـه الماديـة والروحيـة، فهل يجرؤ ملك أو رئيس أن يشـهر نفسـه - مهما بلغت قواته - لمقارعة قوى الأرض والسـماء متكرّسة في شخص؟ وهل يوجد شـعب يسمح لرئيسه أن يعرّضه لبطشة ماحقة تدعه بدءاً.

والطاقات البنّاءة:

هـذا إذا اكتفى باسـتخدام صلاحياتـه الكفاحية فقط، وأمـا إذا ضمّ إليها طاقاته البنّاءة، ففجّر خيرات البر والبحر، واستمطر خيرات الجو، وجاء بالعلوم الكثيرة التي سيّرها الأنبياء على البشرية المنحرفة، فرفع مستوى العقول، وزكّى المواهـب ونوّر الأفـكار، وفك عقد الحيـاة، فمكّن الحضارة السـعيدة التي لا

تكدرها المشاكل، وأعلن العدالة الشاملة التي لا تلوّثها الجرائم، فمسح المتاعب عن الجباه، وكشف القلق والحيرة عن العيون، فإن شعوب العالم تتهافت عليه لتقديم ولائها إليه، وللانضمام إلى كنفه الوادع السعيد.

توقيت الظهور

إن توقيت ظهوره توقيت أكثر من دقيق وأكثر من حكيم، ومن نوع ربما لم يتفق في عمر البشرية كلها بهذا الشكل الحاسم، ولهذا يكون توقيت ظهوره وحده نصف خطته، ولهذا التوقيت أهمية فرضت انتظارها مئات السنين.

ذلك أن الناس في تأرجحهم بين الأديان والمذاهب بحثاً عن الأفضل لا يعتمدون على الآخرين بمقدار ما يعتمدون على أنفسهم، ولا يعتمدون حتى على الغيب بمقدار ما يعتمدون على أنفسهم - وخاصة من أقنعتهم الديالكتيك بسقوط كل المعادلات، وأوصلتهم القيادات المصلحية والانتهازية إلى حافة اليأس من إخلاص الغير، وإلى التشكيك حتى في الشعارات المخلصة - فإذا قيل لأي فرد: إن الإسلام هو المسلك الوحيد إلى السعادة الفاضلة في الدنيا والآخرة، قد يعترف به لياقة للمجتمع الذي يتظاهر مثله بالإسلام، أو مجاملةً للقائل: أو تقليداً ورثه مع ما ورثه من آبائه من التقاليد وبنى عليها تشريفاته الاجتماعية.

كنتيجة طبيعية لهذه الازدواجية الناتجة من الاسترخاء الإيماني، تزعجه الحدود الإسلامية التي تمنعه من الاقتحام في بعض المغريات، ولا يجد إيجابيات الإسلام، فلا يشعر بالطمأنينة التي تركّز نزاوته وهواجسه على مطامح مشروعة، ولا يلمس السعادة التي يشيعها الإيمان حول المؤمن، ولا يتضح أمامه الخط الأفضل الذي يهدي إليه الإسلام، لأن البناء الناقص أطلال ومواد تثقل ولا تنتج.

ولهذا فالمسلم الناقص الإسلام - وأكثر المسلمين اليوم ناقصو الإسلام - يقبل الإسلام على تذمر، وهذا التذمر يأخذ أبعاده من خلال تساؤلات مصدرها معاناة.

ولكنه على العموم، يجب أن يحافظ على الإسلام، كمظهر من المظاهر الاجتماعية، طالما لا يكلفه عناءً، فإذا اصطدم بشيء من مصالحه، أو رفع إلى أزمة عاصفة، بادر إلى التحلل منه بلا تردد، وكأنه لا عهد له به.

وبما أن البدائل التي طرحت مقابل الإسلام كثيرة من داخل الأمة الإسلامية وخارجها، ابتداءً من عهد الفتوحات الإسلامية التي اعتمدت السيف - لا الإيمان - مدخلاً إلى الإسلام، حيث تقمصت الفلسفة اليونانية أزيائها المناسبة للتغلغل والدس في الأمة، ومروراً بعهودنا التي تسترت فيها الديالكتيك ببراقعها المتنوعة، وانتهاءً بعهد - ما قبل الظهور - الذي تأخذ فيه الفلسفات البشرية أقنعتها وواجهاتها المشكلة للقيام بمهمة تمزيق الأمة من داخلها، وبالفعل أدت إلى انشقاق الأمة طوائف وفرقاً، وأما البدائل التي من خارج الأمة في صيغ أديان وفلسفات سابقاً، وفي صيغ أحزاب ومبادئ حالياً، فإحصاؤها يحتاج إلى قاموس يسع مجلدات.

في حين الظهور

إن الإمام المهدي المنتظر عليه السلام عندما يظهر بفتح طريقه بقوة السلاح من الحجاز عبر سوريا والأردن إلى فلسطين، وهناك يذهب إلى بيت المقدس لأداء الصلاة، وحينما يتقدم الصفوف ويهم بتكبيرة الإحرام، ينزل المسيح عليه السلام من السماء الرابعة إلى بيت المقدس، فيتراجع الإمام المهدي عليه السلام من المحراب ويقول للمسيح: «تقدم فصلِّ بنا يا روح الله» فيأخذ المسيح عليه السلام بعضد الإمام المهدي عليه السلام ويعيده إلى المحراب،

ويقـول لـه: «بك تقـام الصـلاة» فيتقـدم الإمـام المهـدي ويقتدي به المسـيح[1]، وعندمـا يـرى المسـيحيون أن المسـيح يصلى خلـف المهدي يؤمنون به بلا قتال[2].

والمسيحيون -اليوم- يشكلون الأكثرية الساحقة في الدول الكبار، فإذا استسلمت له الدول الكبار، فإن بقية الدول تعلن ولاءها له رغباً ورهباً.

ونحن نرى - في أيامنا هذه - أنه لا يظهر ثائر، إلا ويشغل كل الدوائر السياسية في العالم، ويضع كل أفراد شعبه أيديهم على قلوبهم خشية بطشه، رغم أن الثائر ليس إلا رجلاً عسـكرياً اسـتخدم تكتيكاً معيناً للسـيطرة على عاصمة بـلاده، ورغم أن الناس تعودوا أن يسـتفيقوا على الثورات، وعرفوا حـدود الثـورات، ووجـدوا أن الثائـر صبيحـة ثورتـه أكثـر النـاس فزعاً من المعاكسـات، فيبادر إلى غلق الحدود مع جيرانه، والمفاوضة مع السفارات المعتمدة في بلاده، والمعسكرات النائية، وربما يتنازل لها عن كثير من كرامته وكرامـة بلاده، للاطمئنان على حياته، فكيف إذا ظهر قائد فتح مجموعة من البلاد وأسقط عدة حكومات، واستسلمت له الدول الكبار خلال أيام؟

الولاية التكوينية للإمام عليه السلام:

فـي الأحاديـث المنقولة بهذا الخصـوص دلالات واضحـة على أنه يستخدم ولايته التكوينية لبسط سلطانه على الأرض، فهو وعد الله الذي ورد في القرآن: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي**

(١) وإما قصة اقتداء المسيح عليه السلام بالإمام المهدي عليه السلام فقد جاءت في كتب الخاصة والعامة: الملاحم والفتن لإبن طاووس باب ١٨٧، ص٨٣-٨٤، ومعجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ج١، ص٣٢١، وبحار الأنوار، ج٥١، ص٧١.
(٢) الإمام المهدي عليه السلام من المهد إلى الظهور، ص٦٧٨.

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1].

فإذا شاء الله أن يمكّنه في الأرض كما مكّن سليمان ويوسف عليهما السلام، فإن الأمر لا يحتاج إلى أن نجهد نحن للتعرف على كيفية انتصاره.

نشر العدل العام

بالإضافة إلى أنه يطمئن الناس إلى عدالة قضيته، عن طريق المعجزات التي تحفّ بحركته، وعن طريق إظهاره مواريث الأنبياء، وإذا اطمئن الناس إلى عدالة شخص أسرعوا إلى التجاوب معه، والناس دائماً يلتفون حول من يحسن رفع شعار الحق.

ظاهرة التشكيك في حياته عليه السلام

الظاهرة الثالثة، وهي ظاهرة التشكيك في حياته حتى الآن..

ويمكن مناقشة هذه الظاهرة علمياً ودينياً.

تفنيد التشكيك علميّاً:

١- أما مناقشته علمياً فكما يلي:

الأول: إن التفوّق موجود في جميع الموجودات، ابتداءً بالجمادات والنباتات وانتهاءً بالحيوان والإنسان، وذلك على إثر تغيير بسيط في التركيب الكيمياوي أو الفسيولوجي... ففي الأجرام الفضائية توجد نجوم تفوق جميع النجوم في حجمها وكهربتها وعمرها نتيجة لتوفر مواد فيها

---

(١) سورة النور: ٥٥.

غيـر متوفرة في بقيـة الأجرام الفضائية، وفـي النباتات تظهـر نباتات متفوقة فـي الحجـم والفاعلية. وهكـذا في الحيوان والإنسـان، والعاديات تشـكل طبقـة مألوفة، ثم ترتفع فوقها طبقة المتفوقـات، التي تعلو عليها جميعاً قمة المتفوقات، وتكون خارجة على المألوف وخارقة للعادة بفاصل كبير، وإذا كان لـكل فصيـل من الكائنـات متفوق يظهر في زمان، فمـاذا يمنع أن يكون الإمـام المنتظر عليه السلام قمة المعمّرين، وظهر في هذا الزمان لفارق في تركيبه الجسماني.

ولا نريد أن نملأ الصفحات بذكر النماذج المتفوقة، فإن دراسة لعلوم الطبيعيات تشهد بوجود التفوق في جميع المخلوقات.

الثانـي: إن العلـم لا يسـتطيع أن ينفـي شـيئاً، لأنه ليـس إرادة تفرض على الكائنات، وتحدد مسـارها، وإنما هو انطباع حاصل من استقراء بعض الكائنـات، وليس حاصلاً عن اسـتقصائها جمعاء، لأن البشـر وإن اسـتطاع اسـتقصاء جميـع المصاديـق المعاصـرة مـن فصيل مطـروح للـدرس، فإنه لا يسـتطيع اسـتيعاب الزمان حتى يسـتقصي جميع المصاديـق، فيأخذ عنها انطباعـاً مطمئناً إلى اعتماده على الاسـتقصاء، واسـتقراء بعـض المصاديق يولـد انطباعاً يصلح لتوسـيع (أرشـيف المعلومـات) ولا يولد قاعـدة ثابتة يمكـن الاعتمـاد عليها للحكم على ما لم يتم اسـتقراؤه من المصاديق، وقد ثبـت فـي (علم المنطـق): «أن الجزئي لا يكون كاسـباً ولا مكتسـباً» ويعني بالجزئي كل استقراء لم يستوعب الكل ولو بانفلات مصداق واحد.

لذلـك يبقى العلـم التجريبي في نطاق (النظريـة) أو (الإنطباع) الذي يصلـح لإعطاء فكرة عن الفصائل المدروسـة، ولا يصلح قاعدة لمعرفة كل مصاديـق هـذه الفصائل، فلهـذا نجد الكائنـات تواصل تطورهـا وتوالدها، ونجـد العلمـاء يسـيرون خلفها لالتقاط مزيد من الصور، لتوسـيع أرشـيف

معلوماتهـم، وهـم يغيّـرون معلوماتهـم كلما وجـدوا نموذجـاً يختلف عن النماذج المعروفة.

- مثلاً كانوا يقولون بوحدة أصل الأنواع، وبأن القرد أصل الإنسـان، ثم غيّروا معلوماتهم بهذا الخصوص.
- وغيّروا معلوماتهم حتى الآن عدة مرات في تحديد تاريخ الإنسـان على الأرض.
- وغيروا معلوماتهم في طريقة تكوّن الأرض، وفي المواد التي يتكون منها النفط، وغيروا معلوماتهم بالنسـبة إلى أشياء كثيرة فيما يتصل بالأجرام الكونية، والشـهب والـزلازل، والمعادن، وعدد العناصر الأولية للكون، والطب وغيرها...

حتى أصبح تغيير المعلومات شيئاً سهلاً ومألوفاً لا يفاجئ أحداً ولا يعاب عليه أحد، فما من كشف جديد إلا ويساوي تغيير سلسلة من المعلومات.

والعلماء يرون اليوم أن تركيبة جسم البشر المعروف حالياً لا يتحمل البقاء طويلاً، وهم يبحثون عما يسـاعده على البقاء لفترة أطول، وهذا يعني عـدم اسـتحالة البقاء الطويـل، كما يعني أنهـم يتوقعون العثور على وسـيلة للبقاء الطويل، فلا مفاجئة إذا عرفوا شـخصاً عثر على تلك الوسيلة وجربها في نفسه.

الثالـث: لقد توصل علم الطب إلى أن الجسـم البشـري صالح للبقاء الطويـل إذا لـم يتعرض لنكسـات صحية، ذلك أن الجسـم مركب من خلايا عاديـة وخلايـا نبيلة، فالخلايا العادية، وإن كانت تسـتهلك بسـرعة على أثر الفعاليـات العضلية، إلا أن الجسـم مـزود بأجهزة لتوليد كل أنـواع الخلايا العاديـة التـي يحتاجها الجسـم، والخلايا النبيلـة وإن كان عددهـا معيّناً منذ الولادة، ولا يوجد في الجسم جهاز لتوليد بدل ما يتحلل منها، إلا أنها قوية

وصالحة للبقاء الطويل إن لم تتعرض لصدمات.

صحيح أن الإنسان قد يولد وهو يحمل في داخله آفات تفتك به من الداخل باستمرار، وصحيح أن البيئة المعاصرة ملوّثة تحرم جسم الإنسان من الظروف الصحية الملائمة، ولكن هذا لا يعني أنه لا يمكن لأي إنسان أن يتخلص منها، فإذا ولد إنسان سليماً من الآفات الداخلية، وتخلص من البيئة الملوثة، فالمفروض أن يعمر طويلاً.

والإمام المنتظر أحيط بظروف صحية من قبل ميلاده، لأن والده الإمام الحسن العسكري عليه السلام كان يعلم أن عليه أن يؤهله للغيبة الطويلة، وهو خرج من البيئة الملوثة إلى (الجزيرة الخضراء) منذ صباه الباكر، وعلمه الواسع كإمام يسهل عليه إيجاد الظروف الملائمة، وتجنب ما يؤثر على طول العمر، فالمفروض أن يعمر طويلاً.

الرابع: ان تجارب التحنيط أثبتت أن الجسم البشري قابل لمقاومة الزمان مدى السنين، بمسحة بسيطة من مواد كيماوية اسمها (المومياء) وخلايا جسم الميت – رغم عدم تجددها – إذا كانت صالحة للبقاء، فهل تكون خلايا جسم الحيّ – مع تجددها – غير صالحة للبقاء؟! غير أن البشر استطاع أن يعرف وسيلة لحفظ جسم الميت ولم يستطع أن يعرف وسيلة لحفظ جسم الحيّ، ولكن نجاح التحنيط ألقى الضوء الأخضر على طريق البقاء.

الخامس: إن التشكيك في طول عمر الإمام المنتظر ناتج من (إستبعاد) أن يعيش إنسان أكثر من ألف عام في الوقت الذي لا يعيش الناس – غالباً – مائة عام، و(الاستبعاد) ليس دليلاً علمياً، فكل علماء الأمس كانوا يقولون: (استبعاد) أو(استحالة) أشياء ستحقق في الغد، فـ(الإستبعاد) ليس دليلاً يمكن الإعتماد عليه لنفي شيء.

تفنيد التشكيك دينياً:

٢- وأما مناقشته دينياً فكما يلي:

الأول: تقول المصادر الدينية بأن العديد من البشر عاشوا طويلاً، فالنبي نوح كانت فترة رسالته قبل الطوفان تسعمائة وخمسين سنة كما يقول القرآن الكريم: ﴿**فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ**﴾(١)، وحياة نوح وسعت ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تبدأ بميلاده وتنتهي ببعثته رسولاً إلى قومه.

المرحلة الثانية: تبدأ ببعثته رسولاً إلى قومه وتنتهي بالطوفان.

المرحلة الثالثة: تبدأ بالطوفان وتنتهي بوفاته، وفي بعض الحديث أن مجموع حياته بلغت ألفين وخمسمائة سنة.

والخضر وإلياس كانا من قبل موسى بن عمران، ولا زالا حيين يرزقان. وعيسى بن مريم ولد قبل حوالي ألفي سنة وعاش إلى اليوم، ولن يموت قبل أن ينزل من السماء، ويوجّه المسيحيين إلى الدين الحق، كما يقول القرآن: ﴿**وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾(٢). والأعور الدجال كان قبل أيام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ولا زال حياً، وسيبقي حتى يقتل بيد عيسى بن مريم عند ظهور الإمام المنتظر، وعوج بن عناق - سبط آدم - عاش ثلاثة آلاف سنة حتى قتله موسى بن عمران، حسب النصوص الواردة في شأنه(٣).

وإذا عاش غير الإمام المنتظر طويلاً فماذا يمنع أن يعيش الإمام المنتظر طويلاً، وهو لم يبلغ حتى الآن من العمر ما بلغه أولئك.

---

(١) سورة العنكبوت: ١٤.

(٢) سورة النساء: ١٥٩.

(٣) بحار الأنوار، ج١٣، ص١٨٧.

الظاهـرة الرابعـة: وهـي ظاهرة التشـكيك في فائـدة الإمـام الغائب، فيمكن مناقشة هذه الظاهرة بما يلي:

الولاية التنفيذية:

١ - إن الإمـام - بمفهومـه اللغوي - مطلق من يُؤتم به، أي يُقتدى به، سـواءً أكان المقتـدي به كثيراً أم قليلاً، وسـواء أكان الـذي يقود عبره حقاً أو باطلاً.

والإمـام - بمفهومه الاصطلاحي - كل من يخوله الله قيادة تكوينية، وإذا لم يخوله الله قيادة تكوينية، فليس إماماً، حتى ولو كان نبياً، وحتى ولو كان رسولاً، وهكذا يختلف مفهوم (الإمام) عن مفهوم (النبي) كما يختلفان عن مفهوم (الرسـول)، وإذا أردنا إيضاح الفـارق بين هذه المفاهيم علينا أن نقول:

النبي والنبوة:

أ - (النبي) هو الذي ينبئه الله ويخبره مباشـرة بما يشـاء، والنبوة رتبة ينالهـا كل مـن علم الله تعالى فيه كمالاً روحياً يؤهلـه للاطلاع على ما وراء المحسوسـات بالحواس الخمس، فيمنحه الله سـبحانه قـدرة على رؤية ما وراء الحجب والمسـافات ورؤية الروحانيات كالملائكة والجن والشيطان وقد سجل الله تعالى هذين الأمرين لإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن حيث قال: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ**﴾(١).

---

(١) سورة الأنعام: ٧٥.

والنبي قد يؤمر برسالة معينة إلى الناس فيكون نبيّاً رسولاً وقد لا يؤمر برسالة إلى الناس، وإنما بمهمات خاصة خارجة عن لطاق الشرائع، فيكون نبياً غير رسول.

الرسالة والرسول:

ب- و(الرسول) هو الذي يؤمر - من قبل الله - بتبليغ رسالة معينة، سواء أكانت تلك الرسالة موجهة إلى أناس معينين أو إلى الناس أجمعين. فبخصوص يونس بن متّى يقول الله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾(١).

بينما يقول للنبي الأكرم ﷺ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ**﴾(٢)، وسواء أكان ذلك الرسول مأموراً من قبل الله مباشرة أم بواسطة رسول من الناس، فمثلاً قال الله تعالى لموسى بن عمران - عنه وعن أخيه هارون -: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ**﴾(٣)، و﴿**اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي**﴾(٤). فيما قال عن ثلاثة من رسول عيسى ابن مريم: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾(٥). وفي بعض الحديث، أن هؤلاء الثلاثة لم يكونوا ممن يستقبلون الرسالة مباشرة من قبل الله، وإنما كانوا من المؤمنين برسالة عيسى ابن مريم.

و(الرسالة) شريعة، قد تكون شاملة تعطي فلسفة الكون والحياة والإنسان وتنظيم نشاطات الإنسان بجانبيها الروحي والمادي، وربما تكون

---

(١) سورة الصافات: ١٤٧.
(٢) سورة سبأ: ٢٨.
(٣) سورة طه: ٤٣.
(٤) سورة طه: ٤٢.
(٥) سورة يس: ١٤.

محـدودة تعطي فلسـفة الكون والحياة والإنسـان فقط، أو تنظم النشـاطات الروحيـة فحسـب، وربما تكون محصورة بتصحيح بعـض الأخطاء الطارئة على مسيرة قوم مؤمنين.

و(الرسـالية) صلاحيـة يخولها اللـه تعالى لمن تتوفر فيـه مواصفات تؤهله لحمل رسـالة السـماء إلـى الناس، وهـذه المواصفات يلـزم أن تبلغ درجـة (العصمة) في مسـتوى رفيع حتى تؤهل صاحبها لاسـتقبال الرسـالة مباشـرة من السماء، ويلزم أن تبلغ درجة (العصمة) في مستوى أقل من ذاك حتى تؤهل صاحبها لاستقبال الرسالة من رسول من الناس.

فالرسـول إذا تلقى رسالته مباشرة من السماء أصبح رسولاً ونبياً، كما يقول الله بحق إسـماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ رَسُـولًا نَبِيًّا﴾[1]. وإذا تلقى رسالته من رسول من الناس، أصبح رسولاً غير نبيّ – في بعض المصطلحات.

الإمامة والإمام:

ج: و(الإمـام) هو الـذي يؤمر من قبل الله بـ(الولاية التنفيذية) سـواء أكان الإمـام رسـولاً، أو كان نبيـاً غير رسـول، أو لم يكن نبياً ولا رسـولاً بل وصياً لنبي.

والإمامة – مثل الرسالة – صلاحية يخوّلها الله كل من تنسج مواصفاته مع (الولاية التنفيذية).

وقد ظهرت للناس آثار (الرسـالة) وصلاحية (الإمامة) من الله حينما خلـق الكـون وضبطه بـكل عوالمه وخلائقـه الكثيرة المعقدة بإدارة شـاملة محكمـة لا تنفلت منها نبضة عصب ولا حبة مطر، ولا هبة نسـيم، ولا أدنى

(١) سورة مريم: ٥٤.

مـن ذلك ولا أكبر، وتظهر هذه الإدارة في حركات المجرات المخيفة، وفي شبكات الريّ المنتشرة في كافة أنحاء ورقة الكرم، وفي المهمات الحساسة التـي تؤديهـا الخليـة المجهولة فـي دماغك، وفـي التفاعـلات الدقيقة التي تنجزها مليارات الأشعة الفاعلة في الكون.

والنـاس عندمـا يجـدون البروتون الموجـب يدور حولـه الإلكترون السـالب (كـذا) دورة فـي الثانية، يقولـون البروتـون الموجب يـدور حوله الإلكترون السـالب، ولكنهم لا يتسـاءلون: من الذي يدير هذه حول تلك؟ وعندما يرون حبات المطر تتساقط هنا لا هناك، يقولون: السيول تجتاح هذه المنطقة، والمواشي تموت في تلك المنطقة على إثر الجفاف، ولا يتساءلون من الذي أسـقط المطر هـذه المنطقة وحرم منه تلك، وعندما يسـمعون بأن فجـوات هوائية تحدث هنا بينما هناك يرتفع ضغط الهواء، أو عندما يعرفون مياهـاً جوفيـة هنـا، وأطنان الأورانيـوم هناك، وحبـات ألماس ترقـد هناك، يكتفـون بالاطـلاع عليها والاسـتفادة منها فحسـب، ولا يحاولـون التعرف على الجهاز الإداري الذي يؤدي هذه الأعمال، ولا استيعاب الأسباب التي تنتهـي بهذه التركيبات، تماماً كالبدوي السـائح الذي يدخل مدينة متحضرة بـلا مترجـم ولا دليل فيـري الشاشـة الصغيرة هنـا تتابع عرض مشـاهدها، وهناك هوائية جبارة جامدة تحت الشـمس والمطر، وهنالك آليات متحركة تتراكض في خطوط متشـابكة من الفجر إلى الفجر، وإلى جانبها غرفة كبيرة تضج بأصوات آلات حديد تتحرك تلقائياً وتعج بالأسـلاك متزاحمة متراكبة وفوق البيوت أجسام كبيرة تسبح في الهواء وتزعق بلا انقطاع، وعلى بعض الجـدران آلة صماء معلقة يأتي الناس إليها فيرمون النقود في جيبها ويظلون يتكلمون ويضحكون لها وهي لا ترد عليهم، فيذهب إلى نجمة كبيرة مرمية وسـط الشـارع ليخطفها إلى كوخه فينفضـه تيار الكهرباء، ويحـاول أن يمرّ الشـارع فيصـرخ بـه الرجال، ويريـد أن ينـام علـى الرصيف فيقـوده رجال

الشـرطة إلـى موقـف، ويدخل المطعـم ويختار طعامـاً يروق لـه منظره فلا يستطيع تناوله.

وتمامـاً كالطفـل الـذي يجـد أسـلحة أبيـه، فيحـاول التعـرف عليها والاستفادة منها في أغراضه الطفولية فتنفجر بين يديه، فتدمره وتقضي على حياته.

لابد أنك رأيت في حياتك مثل ذلك البدوي ومثل هذا الطفل.

وبهذا الشكل يتعامل كبار علماء الطبيعيات مع الكون، فيرون الأشياء وكأنهـا مبعثرة، وكأن كل شـيء يتحرك ارتجالياً وبدافـع ذاتي بلا هدف ولا وسـيلة ولا خطة، لذلك يجهدون أكثر مما ينبغي، ويهدرون طاقات بشـرية ومادية هائلة، ثم يستفيدون أقل مما ينبغي.

ويأتـي أدلاء الكـون ومصادر الوحي، فيقولـون: إن الكون كله وحدة مترابطة مشـدودة بالأسباب والمسببات، ومسيرة بإرادة شاملة محكمة، فما من حبّة مطر إلا ويأتي بها ملك ليضعها في موضعها المناسب، وما من نطفة إلا ويفصـل ملامحهـا ويخطط جغرافية حياتهـا وأعمالها ملك، ولا تتحرك ريح ولا موج ولا نجم ولا سحاب إلا ويحركه ملك وفق خطة حكيمة، ولا تنبض خاطرة في دماغك إلا بوحي ملك أو شيطان.

صحيح أن الله يصمم جميع الأقدار، وأنه يستطيع أن يدير كل العوالم بلا جهاز إداري، ولكن شـاء أن يديرهـا بجهاز إداري، ففي بعض الحديث: «أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها»[1]. كما أن الله قادر أن يلهم كل واحد

(١) في بصائر الدرجات، ص٢٦، عن الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب...» . وفي شرح زيارة الجامعة للسيد عبدالله الشبر، ص٢٦: عن الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسبابها...».

من الناس شـرائع دينه بلا وسـائط، كما ألهم الحيوانات وظائفها بلا وسائط فقـال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّـكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِـذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾[1]. ولكنه شـاء أن يعلمهم شرائعهم بواسـطة الأنبياء والأوصياء والعلماء وكما أن الله قادر على أن ينزع خصائص الأرض من الناس ليعيشوا كالملائكة، هوايتهم الهدي وشهوتهم العبادة ولكنه شاء أن يعرّضوا للتجربة، حتى يبلغ كلٌّ مداه فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[2].

وكما أن الله قادر أن يخلق البشـر مـن غير أبوين، وأن يخلق الحيوان والنبات من غير أصل، وأن يوجد جميع الأنواع ارتجالاً من لا شيء، ولكنه شـاء – بحكمتـه البالغة التي لـم يؤهلنا لاسـتيعابها – أن تكون سـنة الخلق في مسلسـلات متوالدة، هكذا شـاء الله أن يوكل الكائنات إلى جهاز إداري هرمي – وأن لا ينفذ شـيء إلا بعلمه الدقيق وإرادته المباشـرة – إلا أن هذا الجهاز موكل بتنفيذ إرادة الله في خلقه، فوظف مجموعات من ملائكته في هذا الجهاز موكل بتنفيذ إرادة الله في خلقه، فوظف مجموعات من ملائكته في هذا الجهاز أسماهم في القرآن بـ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[3].

وجعل على كل قسم ملكاً من أعظم ملائكته فوكل (رضوان) بالجنة، ووكل (مالـك) بجهنـم، ووكل (جبرائيـل) بالرسـالات والرسـل وعقـاب المتمرديـن عليهـا، ووكل (إسـرافيل) بنفخـة الصـور، ووكل (ميكائيـل) بـالأرزاق ووكل ملـكاً عظيماً اسـمه (الـروح) بالأقـدار، ووكل (عزرائيل) بـالأرواح، ووكل ملـكاً بالريـاح، وملكاً بالبحـار، وملكاً بالشـمس، وملكاً

(١) سورة النحل: ٦٨-٦٩.
(٢) سورة هود: ١١٨.
(٣) سورة النازعات: ٥.

بالقمر، وملكاً بالأرض، وملكاً بكل سماء من السماوات، وجعل لكل قسم من هذه الأقسام فروعاً، ووظف على كل فرع ملكاً تتناسب مؤهلاته مع مهمته في تسلسل إداري دقيق، ثم جعل فوق الملائكة الموكلين بالأقسام الرئيسية، رجلاً من البشر يمثل قمة الهرم، وإذا أردنا التشبيه فمن الممكن أن تشبّه الرجل القمة برئيس مجلس الوزراء، وأن تشبّه الملائكة الموكلين بالأقسام الرئيسية بالوزراء، وأن تشبه الفروع الممتدة من كل قسم بالمديريات المتفرعة من كل وزارة والرجل القمة في جهاز الإدارة التنفيذية يطلق عليه لقب (الإمام) ويقال له: صاحب الولاية كما يقال له: صاحب العهد اقتباساً من قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾[١].

وإلى جانب هذا الجهاز الإداري الشامل الدقيق الذي يتولى الجانب التكويني للكائنات، يوجد جهاز إداري شامل دقيق آخر، يتولى الجانب التشريعي للكائنات فيما أتاح لها الإرادة المستقلة لإتمام التجربة.

وهذا الجهاز الواسع أيضاً ركبه الله تركيباً هرمياً، ووكل بكل قسم من أقسامه ملكاً من أعظم ملائكته، ثم جعل فوق الملائكة الموكلين بالأقسام الرئيسية رجلاً من البشر يمثل قمة الهرم، وهذا الرجل يكون نبياً أو وصي نبي منصوص من قبل الله، وتشترط فيه مواصفات تبلغ درجة العصمة، لأن الملائكة معصومون، ولا يمكن أن يقود المعصومين غير معصوم.

ولا يطلق على الرجل القمة في جهاز الإدارة التشريعية سوى لقب (الرسول).

... وحيث أن الله تعالى جعل للإمام - أي إمام معصوم - مهمتين: مهمة الولاية التكوينية، ومهمة الولاية التشريعية - كأهم ما جعل الله تعالى

---

(١) سورة طه: ١١٥.

للإمـام – فالغيبـة عن الظهور فـي المجتمعات لا تعجزه عـن القيام بأية من مهمتيه.

فأما بالنسبة إلى مهمته التكوينية فالإمام الغائب يؤديها في غيبته بتوفر ولعلهـا مهمته الكبرى، فغيبته لا تؤثّر عليها مطلقاً لأن أداءها لا يتوقف على الظهور بين الناس.

ولعل ما ورد في الأحاديث الشـريفة[1] من تشـبيه فائدة الإمام الغائب بفائدة الشـمس الغائبة خلف السـحاب إشـارة إلى أن الإمام في غيبة يؤدي ولايته التكوينية، كما أن الشـمس الغائبة خلف السـحاب تؤدي خدمتها في تربيـة الكائنات الدائرة في محيط شـعاعها رغم السـحاب الذي قد يحجب عنها بعضاً من تلك الكائنات.

وأما بخصـوص مهمته التشـريعية فالإمام المنتظر باعتباره اسـتمراراً للنبـي الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم لا تكـون مهمته فـي التبشـير بمفاهيم جديـدة لم تكن معروفة من قبل حتى يتوقف أداؤها على معايشة الناس، وإنما تتلخص مهمته الكبـرى في صيانة المفاهيم التي نزل بها القرآن وبشـر بها الرسـول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم. وأداء مهمة صيانة الشـريعة لا يتوقف على معايشـة الناس، لأنه فور ما يجد أياً من المفاهيم الإسـلامية معرضاً للتشـويه، يسـتطيع بالمبادرة إلى إيضاحه وتأصيله بواسطة بعض من يمكنهم الاتصال به.

ولعل هناك سبباً آخر لانتقال الإمام المنتظر إلى هذا العالم قبل موعد ظهـوره بفترة طويلة، وهو إعـداده لمهمّات خاصة لم تطرح حتى اليوم على

(١) عن سليمان قال: «قلت للصادق عليه السلام: فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟ قال: «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب»» . إكمال الدين، ص١١٩-١٢٠؛ أمالي الصدوق، ص١١٢؛ بحار الأنوار، ج٢٣، ص٦.

الذهنية البشرية، ونحن - في هذه الفترة من عمر البشر - لا نستطيع استجلاء تلـك المهمـات، ولكن قد نسـتطيع أن نستشـف بعض ملامحهـا من خلال الأحاديث المبشّـرة بالحضارة المنتظرة «كالحديث الذي يقول بأنه يسـتنفد خيرات الأرض[1] والسماء، وأنه يأتي ببقية[2] العلم مائة حرف ويطيل أعمار الناس ويكمل عقولهم[3]...».

التشكيك في إيجابية فكرة الإمام المهدي عليه السلام

الظاهرة الخامسـة: ظاهرة التشـكيك في إيجابية فكرة الإمام المهدي لسببين:

الأول: تكريـس اليأس عن جـدوى أي عمل ايجابي قبل ظهره، مادام الله سبحانه وتعالى قدّر أن تملأ الأرض ظلماً وجوراً قبل ظهوره.

الثاني: تكريس اليأس عن جدوى أي عمل إيجابي قبل ظهوره، مادام الله عز وجل قدّر أن تملأ - به - الأرض عدلاً وقسـطاً، بغض النظر عن قلة أنصاره وكثرة أعدائه.

---

(١) عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تنعم أمتي في زمن المهدي نعمة لم يتنعموا مثلها قط، ترسل السماء عليهم مدراراً ولاتدع الأرض شيئاً من نباتها إلا أخرجته» عقد الدرر، ص١٥٩، باب ٧؛ الإمام المنتظر، ص٣٨١.

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام: «العلم سبعة وعشرون حرفاً، فجميع ماجاءت به الرسل حرفان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفاً فبثها في الناس، وضم إليها الحرفين، حتى يبثها سبعة وعشرين حرفاً» بحار الأنوار، ج٥٢، ص ٣٣٦، ح٧٣.

(٣) عن الإمام الباقر عليه السلام: «إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكلمت بها أحلامهم» بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٢٨، ح٤٧؛ الإمام المنتظر عليه السلام، ص٣٧٦.

وهذان القدران يعلنا تعطيل أدوار الآخرين، وبالتالي يوحيان بتجميد كل الطاقات المؤمنة به، لأن أي عمل إيجابي - قبل ظهوره - لا يعني غير تحدّي القدر الذي يضحك من جميع المتحدين، وأي عمل بعد ظهوره لا يعني سوى مجاراة القدر الذي لا تنشطه المجاراة.

والجواب:

أولاً: إن الاطلاع على أن الأرض ستملأ ظلماً وجوراً قبل ظهور الإمام المنتظر، لا يوحي باليأس عن جدوى أي عمل إيجابي بما يلي:

أ - إننا لا نعلم - بالضبط - متى يظهر الإمام المنتظر، فربما يكون ظهوره بعد هذا التاريخ بعشرات أو مئات السنين -لا سمح الله-.

ب- أقصى ما يمكن أن يقال: أن معرفتنا بأن الأرض ستملأ قبل ظهور الإمام ظلماً وجوراً توحي بأن الأعمال الإصلاحية لا تنتج على المستوى العالمي، بل يبقى الظلم والجور طاغيين على الوضع العام العام، وهذا لا ينافي في نجاح المحاولات الإصلاحية على المستويات المحلية.

ج- حتى مع لو علمنا - وبكل تأكيد - أن المحاولات الإصلاحية لا تثمر على الإطلاق، فهذا العلم لا يلغي التكليف، لأن الأعمال الإصلاحية تنعكس على القيمين عليها قبل أن تنعكس أو لا تنعكس على سواهم، فالمفروض عليهم أن يقوموا بها تصعيداً لمستواهم، بالإضافة إلى أن الأعمال الإصلاحية لو لم تنعكس إيجابياً على الناس فإنها تنعكس عليهم سلبياً، فتكون من باب إتمام الحجة الذي لابد منه لتثبيت المفاهيم، وإفراز العناصر المموّهة عن بعضها وإعادة كل إلى واقعه، ليحق الحق و ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال: ٤٢.

ثانيـاً: إن الاطـلاع علـى أن اللـه قـدّر أن تمـلأ - بـه - الأرض عدلاً وقسـطاً، لا يعني أنه وحده - وبطريقة معجزة - يملأ الأرض قسـطاً وعدلاً، وإنما يعمل ذلك بأنصاره، وإلا لماذا ينتظر أن يتكاملوا (٣١٣) رجلاً.

ثالثاً: إن الإعلان المسـبق عن نجاح أيّ قائد على المسـتوى العالمي وانتصاره السـاحق في معركـة التغيير، أقوى ما يرفـع معنويات أنصاره فوق المستحيل، ويكرس في نفوسـهم أملاً لا يتزعزع، ويسهل عليهم التضحية، لأن انتصـاره خير ضمان لخلودهم حتى ولو سـقطوا فـي الدرب قبل انتهاء المسـيرة، فلذلـك نجـد أيّ قائـد ينتفض من تحـت الأرض يحاول تسـكع البراهين المسـبّقة لنجاحـه وانتصاره حتى يضمن إلتفـاف أنصاره حوله في الأزمـات، فكيف يمكـن أن يكون الإعلان المسـبق عن الإنتصـار العالـمي والنجـاح المخيـف - بالنسـبة إلى الإمـام المنتظـر - ظاهرة سـلبية تكرس اليأس في نفوس أنصاره والمؤمنين بإمامته؟

رابعـاً: إن تجربـة التاريـخ تؤكد إيجابيـة فكرة الإمـام المهدي عليه السلام بشكل مخيف:

ففي الجانب السـلبي نجد السـلطات المعاصرة لميلاده، والسلطات التـي تلت ميلاده حتى اليوم تعمل بأقصى طاقاتها للقضاء على هذه الفكرة، فقديماً لـم تكن التدابير العسكرية التي اتخذتها السلطات قبل ميلاده، وعنده ميلاده وبعد ميلاده للقضاء على شخصه إلا أدلة قاطعة على مدى صدمتهم بهذه الفكرة، وحديثاً ليس الإرهاب الفكري الذي يحاول تطويق هذه الفكرة إلا شـاهداً على مدى ما يعانيه أعداء التشـيّع من أصـل فكرة الإمام المهدي عليه السلام بعد أن يئسوا من إمكانية القضاء على شخصه.

وفـي الجانب الإيجابي نجـد أن جميع أجيال الشـيعة كانوا ولا زالوا

يشـجعون آمالهم ويهدهدون أحلامهـم بفكرة الإمام المهدي عليه السلام، وأظن أنـه لولا فكرة الإمام المهدي عليه السلام لما اسـتطاع التشـيع أن يخترق ظلمات التاريخ، وإنما كان يختنق بروائح المجازر وغياهب السجون، فليس الزخم الذي يخرج أنقاض التشـيع من تحت الكوابيس والمآسـي والويلات بفتوة عنفوان أكثر من ذي قبل إلا زخم فكرة الإمام المهدي عليه السلام.

ولا أدلّ علـى مـدى حيويـة هـذه الفكـرة مـن أن جميـع الحـروب والتهريجات التي شـنّت وتشـنّ عليها ما زادتها إلا نشاطاً وصفاءً في أذهان مئات الملايين.

ولا أدل علـى مدى حيويـة هذه الفكرة من الكثيريـن في كل الأجيال الإسـلامية وفـي أكثـر البـلاد الإسـلامية انتحلـوا هذه الفكـرة ليحرقـوا بها المراحـل إلـى القمـة، وما خـاب ظن أحد منهم فلـم ينتحلها أحـد إلا ونال أكثـر مما كان يطمـح إليه رغم توفـر الأدلة على زيف كل مـن انتحلها حتى اليـوم، وهـل توجد أكثر إيجابية من فكرة ينجح بهـا كل من يدعيها ولو كذباً وزوراً؟

وإذا فحصنا التاريخ وجدنا فكرة النبوة أقوى الأفكار قبل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الـذي ختم النبـوة، فقبله كان الكثيرون من طلاب السـلطة والشـهرة يحاولون الانتماء إلى النبوة بسـبب أو نسـب، وعن طريـق الإدعاء - مجرد الإدعـاء - كانوا ينالون الذي يريدون، وبعـد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث ختم النبوة أصبح المُتمهديون يقومون بدور المتنبين، وهذا يكشـف أن المهدوية ورثت قوة النبوة.

إن فكرة لـم ينتم إليها أحد بأي سبب أو نسب إلا وحلق فوق الرؤوس لا تكون فكرة سلبية، ولكن المهرجين ضدها في ضلال مبين.

ظاهرة انتهاء فكرة الإمام المهدي عليه السلام إلى الإتّكالية

الظاهـرة السادسـة: ظاهـرة إنتهـاء فكـرة الإمـام المهـدي عليه السلام إلى الإتكالية طالما هو يفجر الثورة الكبرى في اللحظة المناسـبة، فكأنها توحي إلى الناس جميعاً بأن لا تعملوا أي شيء، فإنني سأعمل كل شيء.

والجواب:

أولاً: إن إعطـاء كل شـيء حجمه، ووضع الأشـياء فـي أطرها ينتهي بالموضوعيـة لا بالإتكاليـة، فإذا قلنا بأن الشـمس ستشـرق في وقت معين، وتضـيء الدنيا، فليس معنى ذلك قتل الشـمعة التـي أقصى تضحيتها أن تنير دائرة محدودة حولها، فما من رسول من أولي العزم إلا وكانت تسبقه البشائر بظهوره ونجاحه في قيادة عملية التغيير إلى الأفضل، وما كانت هذه البشائر توحـي بالإتكالية إلى أحد، وإنما كانت تعيد الآمال إلى حجم الطاقات التي تنطلق منها حتى لا يحاول أكثر مما يسـتطيع فيزهد فيما يستطيع ويعجز عما لا يستطيع ويضيع بين ما لا يرضى به وبين ما لا يقدر عليه.

إن الإعـلان عن وجود رئيس الجمهورية - مثلاً - في مكتبه الأعلى، لا يعنـي إلا إعادة الموظفين إلى دوائرهم المختلفة حسـب صلاحياتهم، لا إقالتهم من وظائفهم.

وإن الإعـلان عن وجود المصلح الأكبر عـن الطريق لا يثبط أحد من إصلاح من يستطيع من أهله ومجتمعه وشعبه.

ثانيـاً: إن كل فـرد يدخـل حلبـة الصـراع الاجتماعـي الرهيب يشـعر بالعجـز عـن إنجاز ما يطمح إليه قبل أن يدخل الحلبةأ وهذا الشـعور بالعجز ينسـف كثيراً مـن الآمال التي تضيع طريقها إلى النـور، فتكريس هذه الآمال

فـي المصلح المنتظر تشـجع الآمال المنهارة على قارعـة الطريق أن تنهض وتواصل السير فمهما تقلبت الأجواء فلها المطاف الأخير.

فالمقدمـة لا تستسـلم إذا علمـت أن ورائهـا جيـش سـاحق، ولكنها تستسلم فور ما تعلم أنها يتيمة لا تعقبها نجدة.

ثالثاً: إن هنالك من لا يخوضون الممارسات العنيفة لأسباب مختلفة، ولكنهـم إذا سـئلوا عـن السـبب أجابـوا بأن الإمـام المهدي عليه السلام سـيظهر ويصلح العالم، لا لأنهم يرون أن فكرة الإمام المهدي عليه السلام تؤدي بهم إلى الموقف الذي يقفونه، ولكنهم لا يريدون إعلان السـبب الواقعي، ويريدون وضع حد لمتابعة السـؤال، فيظن البعض أن إيمانهم بالإمام المهدي عليه السلام هو السبب الواقعي لاتخاذ ذلك الموقف.

كمـا أن المؤمنيـن بالله إذا سـئلوا عن تـرك قضية ولم يريدوا كشـف السـبب الواقعي أجابوا بالتوكل على الله، فيظن الملحدون أن الإيمان بالله يـؤدي إلـى الإتكالية وترك الأمور على عواهنها، بينمـا الذين يعرفون موارد اسـتخدام هـذه التعبيرات يدركون أن هذا النوع مـن الإجابة قد يكون بمثابة رد دبلماسي لسؤال لا يريد عنه المسؤول جواباً.

وقد يكون لغير ذلك أيضاً.

وعن فلسفة الغيبة؟

لماذا غاب الإمام المهدي دون أسلافه الأئمة الأطهار عليهم السلام؟

والجواب:

إلـى ذلك يحتاج إلى بيان مقدمة، وهي: أن وجود الحجة من قبل الله - نبياً كان أو وصياً - أمر لا بد منه لسببين:

١- لما ثبت في علم الكلام من أنه لا بد من وجود الحجة ولولاه لساخت الأرض بأهلها[١].

٢- لأن الحجة يشكل جبهة الحق، التي لابد أن تقاوم جبهة الباطل حتى يبقى على الأرض طريقان طريق الحق وطريق الباطل، يجد كل إنسان نفسه أمام خيارين لا خيار واحد كما يقول القرآن الكريم: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[٢].

ولولا الحجة الذي يؤسس جبهة الحق ويقودها لأمكن أن ينحاز الناس إلى الباطل ووجد كل إنسان نفسه - مهما أوتي من صفاء الضمير - مضطراً إلى السير في طريق الباطل إذ لا يجد بديله.

وبعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ارتبك طريق الحق وصارت الخلافة ملكاً عضوضاً كما أخبر الرسول نفسه[٣]، فلو كان الأئمة يغيبون لتقلصت جبهة الحق وسدت طريقه ووجدت الأجيال أنفسها أمام طريق الباطل وحدها فكان على الأئمة أن يظلوا في الناس ظاهرين مهما تعرضوا للتقتيل والتنكيل، حتى يشكلوا جبهة الحق ويستمر الصراع في الحياة بين الجبهتين ولو غابوا لما بقي من الشيعة عين ولا أثر، لأن الشيعة الذين يشكلون جبهة الحق الأصيلة و لم يكونوا قد اكتملوا كياناً فكرياً ولا كياناً اجتماعياً فبقي الأئمة واستمروا مع ما واجهتهم من ويلات ونكبات.

---

(١) إكمال الدين: ص١١٩-١٢٠؛ أمالي الصدوق، ص١١٢؛ بحار الأنوار، ج٢٣، ص٦.

(٢) سورة البلد: ١٠.

(٣) الصراط المستقيم، لعلي بن يونس العاملي، ج٢، ص١٠١؛ عوالي اللئالي، ج١، ص١٢٥؛ جواهر المطالب لابن الدمشقي، ج٢، ص٢٠١؛ خلاصة عبقات الأنوار، ج٣، ص٥٣؛ كتاب الأربعين، لمحمد طاهر القمي الشيرازي، ص٢٦٩.

أمـا وبعدما انكسـرت سـطوات العواصف و تماسـكت الشـيعة كتلة صخريـة منتشـرة القواعد في أعمـاق التخوم الإسـلامية وفكراً مركـزاً كثير المصـادر والـرواة، بحيـث تسـتطيع الصمـود عبـر التاريخ حتـى ولو غاب إمامهم، لم تكن عندئذ ضرورة لبقاء الإمام ظاهراً معرضاً لكل الاحتمالات فـي جميـع الأحوال، فغاب الإمـام ليظهر في الوقت المناسـب يداً تعلو فلا تطال وكلمة تدوي فلا ترد، وبقيت الشيعة فكرة أصيلة وطائفة صلداء.

حضارة الإمام المهدي عليه السلام

حضارة كل جيل حصيلة معرفة ذلك الجيل بالحياة، فمعرفة الإنسـان بالموجـودات تنعكس على تعاملـه معها، ومجمل تعامله مـع الموجودات حضارته.

وقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يعرف إلا ظواهر الموجودات فحدد تعامله معها بحدود ظواهرها.

لقد عرف ظواهر الأشـجار كما هي، فاتخذ ثمارها طعاماً وأخشـابها وقوداً وبيوتاً وسفناً.

وعرف ظواهـر الحيوانات كما هي، فاتخذ لحومهـا طعاماً وجلودها وأصوافها متاعاً، وظهورها مراكب.

وعـرف ظواهـر الأرض كما هـي فاتخذ مـن الصخور مسـاكن ومن السهول مزارع، ومن البحار أسماكها ولئالئها.

ونـزل عمـق الموجودات فاسـتخرج الحديـد سـلاحاً ولامة حرب، والذهب والفضة نقداً وزينة.

هذه المعرفة حددت حضارة الإنسان في العهود البدائية.

ثــم أتت العهود الحديثة على الإنســان، فعــرف (التحليل والتركيب) من جهة، وعرف (النسـبية العامة) من جهة أخرى، أي عرف تجزئة الشــيء الواحد لاستخدام بعض جزئياته، وعرف تركيب الجزئيات المستخلصة من أشـياء متعددة لاستخدامها كشــيء واحد، وإلى جانب ذلك كله عرف قسماً من المعادلات التي تشد الموجودات ببعضها فاكتشف الكهرباء والذرة...

وكانــت التكنولوجيا الحديثـة، فلم يبق محصوراً في حـدود التعامل مـع ظواهـر الموجـودات، وإنمـا أصبـح قـادراً علـى التعامل مـع جزئيات الموجودات، كما هو قادر على التعامل مع ظواهرها، فاسـتطاع أن يستخدم النفط – مثلاً – وقوداً، وأن يستخدم مشتقاته في ألوف الأغراض المختلفة، واسـتطاع أن يسـتفيد من الشعاع – مثلاً – للإضاءة، وأن يستفيد من مشتقاته لتحقيق آلاف الأهداف المتفاوتة.

فهذه المعرفة حددت حضارة الإنسان في العهود الحديثة.

ويأتي على الإنســان عهد آخر يعرف فيه جميع الطاقات المتفاعلة في الكون، بما فيها الطاقات الميتافيزيقية كطاقات الجن، والملائكة والشياطين – التي قد لا يؤمن بها الكثيرون في الوقت الحاضر – ويعرف كيفية الاستفادة منها جميعاً، فيسـتطيع التنقل بين المجرات كما يتنقل اليوم بين أدوار البناية الواحـدة ويسـتطيع اختراق حاجـز الزمان والنـور كما اختـرق اليوم حاجز الصـوت، ويسـتطيع الفـرد أن يتعامل مع الموجـودات بـذات المرونة التي كان يتعامـل بهـا أصحاب المعجـزات مع الموجودات. ذلك سـيكون عهد المعجـزات أو عهد الإمام المهدي عليه السلام الذي يفك جميع الرموز، ويعطي للإنسان كل العلم مائة في المائة (مائة حرفاً).

في العهود البدائية كانت تظهر بوادر تكنولوجية فظهر النفط واستخدم عبر أنبوب قائم لا يشتعل أبداً، وظهرت الساعة الآلية وظهرت أشياء أخر لم

تكن الذهنية العامة مؤهلة لاستقبالها فرموها بالسحر والجن والشيطان.

ولكن تلك البوادر كانت طلائع عهد هو عهدنا المعاصر.

وفي جميع العهود السابقة ظهرت معجزات لم تكن الذهنية العامة مؤهلة لاستقبالها فرموها بالسحر والجن والشيطان، ولكن تلك البوادر كانت طلائع عهد، هو عهد المعجزات أو عهد الإمام المهدي عليه السلام [1].

حسن المهدي الشيرازي

بيروت

---

(١) هنا انتهى المؤلف الشهيد آية الله السيد حسن الشيرازي أعلى الله مقامه من وضع هذه الرسالة.

المحتويات

كلمـة الناشـر ٣

مقدمة ٩

الحضارة والتكتلات ١١

قضية المصلح المنتظر عليه السلام ١٣

معطيات الفكرة ١٥

ظاهرتان: اليأس والتشكيك ١٦

دور إبراهيم الخليل عليه السلام ١٧

دور موسى عليه السلام ١٧

دور عيسى عليه السلام ١٨

دور رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ١٩

أ- ظاهرة اليأس.. ٢١

ب- ظاهرة التشكيك ٢٣

ج – ظواهر جديدة أُخر ٢٣

مناقشة الظواهر ٢٥

الأقسام الأربعة لظاهرة اليأس ٢٥

مناقشة التشكيك: ٢٧

سلاح الإمام المهدي عليه السلام ٢٨
والأسلحة المتطورة.. ٣١
وطاقاته الروحية ٣٢
والطاقات البنّاءة ٣٢
توقيت الظهور ٣٣
في حين الظهور.. ٣٤
الولاية التكوينية للإمام عليه السلام ٣٥
نشر العدل العام.. ٣٦
ظاهرة التشكيك في حياته عليه السلام ٣٦
تفنيد التشكيك علميّاً.. ٣٦
تفنيد التشكيك دينياً.. ٤٠
فائدة الإمام الغائب ٤١
الولاية التنفيذية ٤١
النبي والنبوة ٤١
الرسالة والرسول ٤٢
الإمامة والإمام:... ٤٣
التشكيك في إيجابية فكرة الإمام المهدي عليه السلام ٤٩
ظاهرة انتهاء فكرة الإمام المهدي عليه السلام إلى الإتّكالية ٥٣
حضارة الإمام المهدي عليه السلام **٥٧**
المحتويات.. **٦١**